مُهمشون

الكتاب: مُهمشون.

المؤلف: مصطفى محمد.

الغلاف: علي إيهاب.

رقم الإيداع: 10037

الترقيم الدولي: 6 - 95 – 6812 – 977 – 978

المراجعة اللغوية: أحمد عبدالستار.

الإخراج الفني: دار المدينة للنشر والتوزيع والترجمة.

رئيس مجلس الإدارة: محمود عادل محمود

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز لأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو كان أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

العنوان4 ح جامع بلال– الشرابية - القاهرة

البريد الإلكتروني: Citybooks20@gmail.com

رواية

مُهمشون

مصطفى محمد

المدينة
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى صديقي المهمش:

كوني أدعوك مُهمشًا فهذا لأنك بالفعل قد تم تجاهلك يومًا ما، ودهستك الحياة بالصعاب والهزائم إلى أن تساويتَ بالقاع. ولكنك تحملت، وها أنتَ مُستمر..

أنت بطل خارق رغم اختراقه.. أنت تستحق تكريمًا كل ليلة لأنك تظل صامدًا ليوم آخر بلا أي انهيار، لا أحد يعلم مُعاناتك ولا تجعلهم يعلمون..

وتلك الأوراق القادمة ستُحزنك، وأنا أعلم أن هذا ما تبحث عنه.. شيء تتشبث به و أمل صغير في أنك لست وحدك تعاني، اطمئن.. لا يوجد أكثر منّا..

نحن.. المُهمشون.

***

لقد رأيتُ الثقب في سفينتك منذ اليوم الأول للرحلة.. ولكنني قررت الإبحار معك، ظنًا منّي بأن الحُب يصنع المعجزات!

دوستويفسكي

الكاتب

الثانية عشرة بعد منتصف الليل..

أصوات صراخ مُتتالية قد أفزعت النائمين، الظلام يغطي الأرجاء فيما عدا بعض شُعاعات الضوء المتراصة على الحائط، بعد أن تسللت من شروخ النافذة الخشبية.

الكثير من الدماء تنسال من بين كفيها وحتى أسفل ذراعيها، سارينة الإسعاف المُرعبة قد امتد صدى صوتها لثلاثة شوارع بالجوار.

المزيد من الصراخ..

الحياة تتلاشى في أعيُنها الباهتة والموت يرتب الأمور.. اللون الأسود يطغى على كل الألوان ليظهر وحده بالصورة.. العالم يصبح هادئًا على غير العادة والضجيج المعتاد يكتسحه صمت عظيم.

تتأرجح الأضواء بالأعلى لتعطي رهبة وخوف من فقدان روح جديدة.. وقد انتشرت تلك الرائحة اللعينة.. إنها رائحة القطن

المنغمس بالدماء، ثم أصوات ناعمة تهتف باسمك وتدعوك للذهاب إليهم.

والمزيد من الصراخ!

هكذا تكون اللحظات الأخيرة قبل الرحيل.

بصوت أنثوي متقطع بفعل البكاء قالت:

- أنا.. إيلين.. لقد حاولت الانتحار!

تابعت بصوت متحشرج:

- نحن بالمشفى.. يمكنك... ماذا!

ثم انقطع الاتصال.. نعم بكل تلك البساطة القاسية.. فبعض الكلمات يمكنها أن تقتلك ولكن تبقى على قيد الحياة، فتقف عاجزًا عن الشعور بالألم، لأن روحك محطمة من الأساس.. قلبك قد انطفأ منذ سنوات ولكنه ظل ينبض أملًا في إعادة أضوائه وبهجته يومًا ما.. فتكمل حينها حياتك التعيسة في الانتظار والانتظار..

انتفض مُراد فزعًا من فراشه.. ليقف في زاوية غرفته تأكله الأفكار التشاؤمية.. وضع رأسه بين كفيه في محاولة بلهاء لمنع ذلك الضجيج الذي اقتحمه، تأتيه رغبة شديدة في البكاء.. أو

الصراخ.. ولكن لا يلبي رغبته مكتفيًا بضربة قاسية وسط المرآة التي شهدت سنوات تعيسة مع هذا البائس اللعين.. تنتشر الفوضى ويتبعثر كل شيء في الغرفة التي تشبه مقابر الأحياء!

فتح عينه وهو أمام المرآة لنبصر شابا هزيلا ذا جسد نحيف، خصلات شعره السوداء تتعارك مع بعضها البعض، عينين يمتلكهما اللون البني، بينما طغت آثار اليأس والهزيمة التي توغلت بين ملامحه على كل هذا.

الآن قد عاد لوعيه مرة أخرى بعد فقرة مؤلمة حاول استيعاب فيها ما يحدث، ومع ذلك لم يستوعب أيضًا!

أيٌّ أحمق هذا الذي يستمع إلى خبر محاولة انتحار حبيبته السابقة ويظل واقفًا في غرفته يلعن الحياة.. أخيرًا قد أدرك أنه عليه أن يهب مسرعًا نحو المشفى الذي ربما يحمل أسوأ الأخبار في حياته.

هرول بين الطرقات مترنحًا وكأنما خرج للتو من حانة وقد أصابه السُكر، وفي الحقيقة فقد أصابه الذُعر!

يرتعش جسده من البرودة ويتصبب جبينه بالعرق، فيلهث مرددًا كلمة واحدة:

- إيلين، إيلين.

وسط تزاحم الطرقات بالبشر، كان عقله متزاحمًا بالأفكار المشتتة.. وعلى كل حال فلا يوجد فارق كبير.. فالبشر دومًا هم السبب في تخبط الأفكار في رؤوسنا، وتزاحم طرقاتنا!

واصل سيره مهرولًا في الشوارع المتشابهة، فقدميه لا تقوده إلى المشفى.. وكأنه يجهل طريق الوصول.. مثل الأطفال التائهين عن منازلهم بعد العاشرة مساءً.

عقله قد أصابه الجمود ليصبح تائهًا وسط الجميع، والأسوأ من كل هذا فقد خانته عيناه وسقطت الدمعات واحدة تلو الأخرى، ليقف بعدها فجأة عاجزًا عن الحراك!

من السيئ أن تصاب بالعجز في أوائل العشرين، ولا أتحدث هنا عن عجزك الجسدي.. بل عن عجز روحك! حين تصبح هالكة غير قادرة على الحراك للأمام ولا حتى العودة للخلف.. وإنما عالق بالمنتصف! عقلك لا يعمل ويذكرك بالماضي فحسب.. تفقد السيطرة على أفعالك في الكثير من الوقت، لأن قراراتك أصبحت دون عقلٍ أو إدراكٍ.. فلا تجد حلا سوى الهروب.. الهروب من الألم.. ومن الحياة.. ومن كل شيء!

استفاق من غيبوبته المؤقتة ليُكمل ما دفعه للنزول سريعًا والذهاب نحوَ المشفَى الذي يحمل أشد الأخبار بؤسًا.

تلكَ الضجة المتواجدة برأسه كانت أشد قسوة من ضجة العالم الخارجي حوله.. وهُنا كانت النهاية المأسوية لكلا الضجتينِ.. سيارة فاخرة.. سُرعة جنونية.. بعض الشباب من أبناء الأثرياء يلهون.. أصوات فرامل عالية تفاجئ الجميع.. صُراخ امرأة كانت بالقُرب منهم.. وهُناك شخص واحد فقط قد لمست الحرية روحه لعدة ثوانٍ عندما ارتفع لأعلى نتيجة الاصطدام الدموي.. ليسقط مُرتطمًا بالأرض وما أن اجتمع الواقفون حوله حتى كانت رأسه وسط بركة من الدماء، لكن الدماء التي تسيل من أطراف أصابعه كانت أبسط بكثير من دماء رأسه.. وعلى كل حال فشخص قتلته الحياة عجزًا لن يموت مرة أخرى.

قبل ثلاثة أعوام..

ماذا تعلمون عن الحب؟ مشاعر.. جنون.. وعود..

هو السياسة المُبسطة للحياة، أو ربما هو الوقوع تحت تأثير المخدر، فتصاب جميع خلايا عقلك بالجمود، أفكارك المعتادة تسقط بين قرارات الهروب أو المواجهة والمجازفة بكل شيء أو حتى عدم التفكير بالأمر!

والحقيقة أنك ستُجبر على الحياة بحملٍ ثقيل في كل الأحوال رُبما الشعور بالندم لعدم المجازفة.. رُبما تجربة فاشلة.. ولكن حتمًا أؤكد لكَ يا صديقي أن الحب وحده يُمكنه تغييُر حياتك رُبما للسيئ ورُبما للأسوأ.

شمس مُشرقة بالأعلى توازيها شمس مُشرقة بالأسفل فكلاهما يبعثان الدفء والحياة.. هكذا كانت إيلِينْ لا يُمكنك إطالة النظر إليها فستحرق عينيكَ بنظراتها وتحرك نبضاتك الخامدة، ستسحرك بابتسامة طفولية وتجعلك تبتسم رغمًا عنك.. ابتسامة تضيق معها عيناها ليتحول خداها إلى اللون الوردي.. وأنتَ هُنا أصبحت ضحية عينيها يا عزيري.

ورغم ابتعادك التام عن أمور الفتيات والجنس الآخر لكن هُنا الأمر مُختلف فعندما يمر أمامك نصفك الآخر بالحياة ستجد قوة هائلة تجذبك نحوه.. تشتعل بداخلك رغبة عارمة بالحديث معه ومشاركته كُل شيء دون تفكير!

يسير صديقنا بخطوات متكاسلة نحو منزله بعد يوم سيئ مليء بالهزائم.. لا يُبالي بالطريق حوله أو للصراخ الذي ينبعث من أفواه الجيران.. وقبل دخوله من الباب الخارجي للبناية بثوانٍ قامت بالمرور من أمامه.. ليجد عينه تسير مع عينيها.. ابتسمت

لهُ فبادلها ابتسامة بلهاء، أسرعت قدماها خجلًا، فأسرعت دقات قلبه حُبًا.

وهنا يُمكننا القول أن مراد قد وقع ضحية عينيها.. وقع تحت تأثير المُخدر.

صعد إلى منزله مبتهجًا بعد أن عاد لوعيه.. يتمنى أن يراها مرة أخرى غدًا وبعد غد.. ورُبما الآن! دلف لغرفته وصاح بصوتٍ مزعج:

- أين الطعام!

الآن..

صمت شديد يملأ الأرجاء.. تُفسده تلك الرنة التي تتكرر على مدار الثانية الواحدة، إنه جهاز قياس نبضات القلب اللعين.. لماذا لا يتوقف وينتهي كُل شيء!

يتسلل بعض الضوء مع دخول الممرضة فيقتل طغيان الظلام الذي دام كثيرًا بالغرفة.

استعاد وعيه فصاحت الممرضة فرحًا لرؤيته يُحرك عينيه ثم نادت قائلة:

- لقد استيقظ مريضنا الصغير!

ابتلع ريقه بصعوبة وتحدث جاهدًا:

- أين أنا؟ ماذا يحدث!

صمت لبرهة استجمع بها عقله ليُكمل:

- إيلين.. إيلين!

تبدلت ملامح الممرضة ليظهر عليها الأسى الواضح، ثم بدأت تتحدث بتلعثم قائلة:

- فلتحمد الله على سلامتك، لقد نجوت بأعجوبة.

تنهد ثم قال بصوت خافت:

- مياه.. أريد بعض المياه.

ثم أردف:

- يتوجب عليَّ الرحيل.

حاول النهوض فجأة ليجد الألم قد احتل جسده وبالأخص أسفل رأسه من الخلف.. ولكن في الحقيقة كان تعب روحه أشد ألمًا، إن كان جسده هالكًا فلن يُبالي، ولكن قلبه الذي كان مُحطمًا.

توترت الممرضة بعد أن ساعدته في الاعتدال ليرتوي من عطشه، وتحدثت بعدها بتلقائية:

- لن تقوى على النهوض، فقد مضى شهر كامل على غيبوبتك!

لم يُعر انتباهه لما قد استمع، يعلم أنها كاذبة ويتوجب عليه الذهاب إلى حبيبته للاطمئنان عليها، ورغم افتراقهما مُنذ مدة إلا أن قلبه مازال معلقًا بها.

- إيلين.. يجب.. الذهاب..
- من إيلين؟ لم يأت أحد لزيارتك أبدًا..

قالتها الممرضة بلا اكتراث.

ليرد بصعوبة:

- رُبما هي هُنا.. أهناك فتاة جائت إلى هُنا في نفس ليلة مجيئي؟ فتاة..

دمعت عيناه قبل أن يقول حاولت الانتحار لترد الممرضة:

- حاولت الانتحار..
- نعم.. أين هي!

كان الرد صادمًا من الممرضة:

- تلك الفتاة غادرت الحياة، في نفس ليلة مجيئك هنا في حادث سير.. فلتدع لها!

صمت تام قد ساد المكان لدقيقة كاملة، ستون ثانية قد مروا على قلبه بثقل ثلاث سنوات قد أمضوها سويًا.

أردفت بنبرة أسى وبعض الأسف:

- فعلنا ما بوسعنا لإنقاذها ولكن للأسف، إنها الحياة.

بعض المواقف بالحياة تحتاج فقط للقليل من الرحمة.. فلا يصح إخبار أحدهم بخبر وفاة بشكلٍ صادم ومفاجئ أو حتى إخباره بالأمور السيئة دون تمهيد.. قلة من البشر يمتلكون فن المواساة عند الانهيار.. قلة!

بدأ بنزع تلك الأدوات الطبية المتراصة على جسده في محاولة بائسة للنهوض، لا يُبالي بتلك الآلام الجسدية هذه المرة.. تتعالى أصوات الأجهزة بجواره لتتحدث الممرضة:

- يجب أن تهدأ، توقف أرجوك!

جاء الطبيب الذي لا يأبه بما يحدث، وبينما يصرخ صديقنا المحطم بصوتٍ قد قارب على الاختفاء:

- لم تَمُت.. دعوني أرحل.. أنتِ حتى لا تعلمين من هي، رُبما.. رجاءً دعوني وشأني و....

لم يُكمل كلماته التي كانت تنخفض رويدًا رويدًا نتيجة لذلك المخدر الذي قد توغل بين أوردتهُ.. تلك الحقنة المُخدرة جعلت الأمر يبدو أكثر هدوءًا بالعالم الخارجي، ولكن أنين بكائه قبل أن يفقد الوعي بالكامل كان يحمل رسالة مؤلمة للحياة..

لماذا كل هذا الحزن، لماذا!

بعض المشاهد نعجز عن وصفها حقًا، فلا يُمكنك التعبير عن شعور شخص توقف عن ممارسة الحياة وما كان يجعله حيًا تركه وحيدًا وذهب للأبد الأمر يُشبه العجز عن الحياة على الرغم من امتلاكك كل ما يلزم.. ومع ذلك تسقط.

فقدان الأحبة أمر بشع لا يمر بسهولة على قلوب جميع الكائنات الحية، وليس البشر فقط!

قبل عامين..

أخرج هاتفه ثم شرع في الكتابة على برنامج *الماسنجر* :

- أعتذر عن عدم سؤالي في الفترة السابقة.. أيضًا بعض الأشخاص يستحقون البقاء للأبد في حياتي، وأنتِ في مقدمتهم!

انتظر عدة دقائق لعلها تستجيب لرسالته وتقوم بالرد، لم تر الرسالة بعد.. رأتها.. يتوتر متحركًا يمينًا ويسارًا حتى جاءه الرد.

- مراد، أبهجتني رسالتك.. أنتَ أعز صديق لي، والأقرب لقلبي!

أخرج أنفاسه المكتومة براحة وارتسم الهدوء على وجهه ثم كتب:

- أتمنى حقًا أن يدوم كل شيء جميل بيننا للأبد.

قالها وهو يأمل أن تدوم بينهما حبال الود لأطول فترة ممكنة، خائفًا من الخذلان الذي لا دين له، والذي يهبط على قلوبنا فجأة ليُحطمها، ويحطمنا!

جميع الأحداث تظل هادئة دومًا قبل أن تُصيبنا العاصفة.. فالحب قبل أن يفرض قيوده حول قلوبنا تسبقه علاقة صداقة

حميمة، ثم أحاديث متتالية لساعات وأيام وشهور دون ملل، ومع بداية طغيان مشاعرنا يتحطم كل شيء متأهبًا لبناء عالم جديد في طي المجهول..

فنجازف بأرواحنا ونغرق في العشق!

الآن..

- مُراد استيقظ يا عزيزي.

يستمع إلى صوتها الناعم يتسلل بهدوء إلى أذنيه.. بصعوبة قد فتح عينيه ليجدها جالسة أمامه كالشمس التي تبعث الدفء في ليالي ديسمبر الباردة.. يبتسم محاولًا التحدث:

- أنتِ..

ابتلع ريقه ثم أكمل:

- إيلين أنتِ..

لترد بابتسامة بسيطة وهي تداعب خصلات شعره بأناملها:

- بكامل صحتي، ولكن يقتلني القلق عليك، فلتتعاف سريعًا..

يقطع حديثهما شخص مزعج قد اقتحم الغرفة دون أن يستأذن للدخول.. حسنًا إنها الممرضة التي تتمشى بخطواتٍ بطيئة وتضع الهاتف بين أذنها وحجابها الأبيض، يداها الاثنتان بداخل جيوب ثوبها الأزرق الذي ينشر رائحة المرضى والأدوية بكل مكان.. وأكثر الأمور سذاجة هي طريقة مضغها للعلكة وهي تتحدث بالهاتف!

أبصرتْ مراد مستيقظًا فتحدثت بلهجة باردة كالعادة:

- صباح الخير، كيف حالك اليوم؟

باشمئزاز قد ظهر على وجههُ قال محدثًا إيلين:

- لا أطيق تلك الممرضة اللعينة، أخرجيها من هنا..

ثم أردف:

- ثم أنني أرغب بالرحيل الآن.

أغلقت الممرضة هاتفها لتتحدث متعجبة:

- من الذي تحدثه؟

بدأ الغضب يظهر على ملامحه ثم أشار ناحية إيلين وقال:

- إيلي..

صمت لثوانٍ ثم أكمل وهو يبحث بوجهه في كل مكان حوله:

- إيلين؟ كانت هنا، أين ذهبت!

***

(احزن بقدر ما تشاء، خُذ وقتك في التعافي.. تألم والعن البشر وقسوة الحياة، ولكن كن على يقين بأن كل هذا سيمر مهما طال.)

وتلك ليست بنصيحة، فقط ثق بشخص تألم كثيرًا بالماضي..

فبراير ٢٠١٨

مُراد

ليلة شتوية باردة كالعادة، تعيسة أيضًا كما وجهي.. أمطارها الغزيرة مازالت تضرب زجاج الشرفة بقوة. وكأنها تدعوني للخروج لتصفية بعض الحسابات القديمة!

كم أحب تلك الغرفة الساكنة، وهي كذلك تبغضني وتأمل رحيلي في كل دقيقة، أعترف ببعض إهمالي وعدم رعايتها جيدًا.. حسنًا ما المزعج في الضوء الآتي خلسة من بين أعمدة الإنارة الحمراء؟ أظنه يُعطي بعض الإثارة بجوار زجاجات الكحول الفارغة.. تراها مبعثرة ولكني قد وضعتها بشكلٍ سداسي الأبعاد! ثم بنطالي الممزق.. ثم تلك الفتاة الحسناء.. ثم.. ماذا؟

أين الفتاة الحسناء!

أين مشروبي المفضل!

سحقًا لقد ازدادت هلاوسي هذه الليلة وأتوهم بشكلٍ سيئ.. حسنًا لا تهتم وتفضل بالجلوس دون حرج.

مرحبًا صديقي العنكبوت.. كيف حالك اليوم سأخلد الآن في نوم عميق، وكما اتفقنا مسبقًا أرجو أن تلف شباكك العنكبوتية حول عنقي حتى أختنق.. حسنًا؟ هيا لا تخذلني أنت أيضًا..

سقط جسدي على بعض الأخشاب الناعمة التي تُسمى سريرا، ولكن كانت كافية لحمل ثقل جسدي وروحي.. كافية لتحملني حين لم أتحملني من الأساس!

أظنني في حاجة لبعض التدفئة.. حاولت مرارًا أن أحتمي من ذاك الهواء المندفع من ثقوب الحائط الواسعة، ولكن تلك الجيفة التي بنهاية الغرفة على بُعد متر ونصف كانت أشد سوءًا مما تتصور.. وهذا البنطال الممزق أصبح منزلًا للفئران المرتعدة من شدة البرودة.. زجاجات الكحول الفارغة قد أحاطها الغبار وكأن أعوامًا قد مرت عليها، ما يُزعجني حقًا أنني أثمل كل ليلة رغم أنني لا أمتلك نقودًا لشراء الخمور مُنذ شهور!

بعد ساعات..

مع الأسف ها أنا أعود للحياة مجددًا، استيقظت يومًا آخر ولم تختنق أنفاسي بشباك العنكبوت اللعينة..

يوم جديد مُحاط بعبق اليأس وروائح الهزيمة المتكررة. نهضتُ متكاسلًا عن الألم ولكن أمعائي الضئيلة قد سئمت الماء والخبز العفن، أشتهي قطعتين من البيتزا ثم زجاجة من الكولا المثلجة فينتعش داخلي مثل السابق.. وبين تلك اللذة التي اشتهيتها سقطت بعض الأحجار الصغيرة من سقف الغرفة على وجهي، وكأنها تخبرني أنه يتوجب عليَّ الرحيل الآن فقدت ملّت وجودي.

لا تخف من هذا الظلام، فقد اعتدت النزول على سلالم متهالكة دون النظر.. أم تقصد تلك الأصوات؟ إنها بعض القطط فحسب، يعزفون بصراخهم سيمفونية لم يعزفها بشري قط.. يعزفون من الألم والبرد والجوع.. ورغم اختراق أصواتهم لآذان الجميع لم يستمع لهم أحد!

والآن سنواجه أكثر الكائنات خطورة.. سيبصرونك بمقلتين دائريتين مليئتين بالغضب، يبصقون أمامك وهم متأملين أن تصل إلى وجهك فقط لأنك مجرد متشرد سيئ المظهر قد قتلتك الحياة وتركت لك جسدًا يُعاني بين البشر.

بصعوبة أحاول الاختباء بين الأزقة للوصول إلى ما يُشبع داخلي الفارغ، تحمّل تلك الرائحة الكريهة فسنركض الآن نحو طعامنا..

فاجأني شخص من خلفي وتحدث لاهثًا:

- أعطني الآن كل ما تملك، أسرع!

ثم شعرتُ بآلة حادة قد وضعها بشكلٍ قاسٍ أسفل جانبي الأيسر.. وسط طحالي بالتحديد إن كنت دقيقًا.

مسكين ذلك الأحمق، لا يعلم أنني أتمنى أن يغرز هذا السكين بجسدي لينتهي الأمر، السيئ إنني شعرت به يرتعد خوفًا.. أظنها المرة الأولى له في محاولات السرقة.. لم يستطع حتى التمييز بين من يستحق عناء سرقته ومن لا يستحق!

تحركتُ مبتعدًا عنه ولم أهتم لتهديداته، ووسط كل تلك الفوضى تسلل إلى أنفي ذلك العطر الذي أعرفه جيدًا.. إنه العطر الخاص بحبيبتي!

هلعتُ أقف ببداية الزقاق وعيني بارزة تتفحص جميع الواقفين بدقة..

ازدادت دقات قلبي على غير العادة وبدأ داخلي يشعر بالبرودة ولهفة النظر للحبيب كما السابق.

تجمد نظري وأنا أبصر تلك الفتاة الواقفة أمام هذا المبنى الشاهق ومحلات الإكسسوار التي تصطف أمامها السيارات الفاخرة.. تسارعت دقات قلبي حتى ظننته سيقفز من صدري لشدة ضرباته.. كنتُ أتمنى أن تلتف لرؤية وجهها حتى أتأكد، ولكن لم تنظر خلفها!

صدقًا أشعر بوجودها، رائحتها قد طهرت أنفاسي الملوثة، بفستانها الأسود الذي تصاحب أسفل أطرافه الأخيرة الأرض دومًا.. إنها حبيبتي!

شاهدتها ترحل بخطوات ثابتة من أمام عيني.. لن أترُكها ترحل.. سأذهب إليها فبالتأكيد قد اشتاقت لي وستسعد لرؤيتي.

للمرة الأولى منذ شهور قد خالفت قواعد البشر التي تمنعني من الخروج إلى النور.. وإلى الشوارع العمومية. اتجهت بخطوات متسارعة نحوها.. أبتسم ببلاهة مفرطة، فلم أبتسم منذ زمن، تظهر أسناني الكريهة دون إدراكي.. ما أن اقتربتُ منها ولامست أناملي المرتجفة كتفها قائلًا بعفوية:

- إيلِينْ!

التفت لتقف أمامي مباشرةً.. عيناها تحرق عيني بنظرتها الهادئة التي ازدادت جمالًا وبريقًا، لم تتبدل ملامحها كثيرًا.. لطالما أسرتني بها وسرعان ما تحولت ابتسامتها الطفولية إلى خوف قد ظهر على ملامحها..

ابتعدت للوراء خوفًا منّي، وكالأحمق اقتربتُ محاولًا طمأنتها، حتى صرخت!

لم أعلم حقًا لمَ فعلت ذلك! راودتني أفكار بالهروب والركض سريعًا، وأخرى بمحاولة التحدث معها وشرح الأمر وكل هذا يحدث بثوانٍ معدودة داخل رأسي السميك.

حتى قطع تفكيري بعض الشباب الذين اجتمعوا حولي لينهالوا على جسدي بالضربات القاسية.. يركلون بأقدامهم أمعائي الصغيرة التي تتناول الآن ما يملأ فراغها هؤلاء الحمقي يحاولون كسب إعجاب تلك الفاتنة الواقفة أمامهم بواسطة سحق رجل عاجز لا يحاول حتى الدفاع عن نفسه أو الرحيل عنهم، فلو كان من يصرخ رجُلًا لمَا اهتم أحد وتجاهلوا الأمر!

وفي الحقيقة لم أشعر بألم تلك الضربات المتتالية، فألم الشعور بعدم معرفتي كان مريعًا وأكثر إيذاءً.

وكأن روحك التي تتلاشى عاد الهواء معاكسًا ليجمعها مرة أخرى، ثم ماذا؟ تأبى الرياح المتصارعة انتصارك فتبعثر ما تبقى من روحك مرة أخرى.. لتتلاشى مجددًا.

شاهدتها تقف بعيدًا تتساقط من أعيُنها دمعات كانت تحرق داخلي فسقطت دمعة بالية من إحدى عينيّ مؤازرةً لبكاء الحبيبة.. وليس من قسوة ما أتعرض له الآن، فلم يؤلمني سوى الكلمات التي قالتها فتاة خرجت للتو من إحدى المحلات قائلة:

- ماذا حدث يا عزيزتي، لِمَ تبكين يا مريم!

استيقظتُ على صرير بعض الجرذان بجانب أذني بالإضافة لتلك الروائح الكريهة التي قد تسللت إلى أنفي، حاولت النهوض وسرعان ما انتشر الألم بجسدي فعجزتُ عن الحراك.

صاح أحدهم عندما لاحظ استيقاظي وحدثني قائلًا:

- ظننتك فارقت الحياة بعد كل هذا الضرب..

رمقته بعينين هالكتين لأتحدث بصعوبة:

- من أنت، وأين أنا!

كانت الإضاءة خافتة لم أستطع تحديد ملامحه لأعلم من هو، وجهي المتجمد يُزيد الأرض بردًا.. ملابسي الممزقة وشبه العارية أصبحت وطنًا لبعض الحشرات التي لا مكان لها بالخارج يعلمون أنه بعد قليل سأسحقهم وأنهض ومع ذلك اختبأوا بداخلي لعلهم يحظون بالدفء والحياة لمرة واحدة قبل نهايتهم.

مؤسفة هي تلك اللحظة التي تتكاتف بها كل الأشياء السيئة لإيذائك وانطفاء روحك حتى تُصبح اللون الذي يلي الأسود في الحزن..

فتجد الموت الذي يخشاه الجميع أصبح أمنيتك الوحيدة وملاذك الأقرب للنجاة.

اقترب مني وهو يتفحص وجهي جيدًا وكأنه يتأملني.. حتى ساد الصمت بيننا لدقائق ليُفاجئني بصوته المرتفع:

- لستُ مجنونًا!

ظل يُلقي جملته على مسامعي مرارًا حتى تأكدت من جنونه، لم أهتم لحديثه كثيرًا.. مر الوقت وأنا أجاهد للنهوض من مكاني مستندًا على بعض المقاعد المحطمة والخردة المكونة من الزجاجات البلاستيكية الملقاة بكل مكان.

انتصر جسدي على آلامه ووقفت على ساقين ترتعدان من البرودة نحيفتين مثل قواعد الطاولات.. تحملان جسدًا هزيلًا أكله الضعف واليأس.

لأبصر ذلك الغريب الذي يقف على بُعد خطواتٍ مني لأحدد ملامح شاب ضعيف الهيئة، داكن البشرة، ذا عينين هالكتين ابتلعهما السواد.. طويل القامة وله شعر يصل لخلف رقبته.. ذا هيئة مقبولة إلى حدٍ ما، فبالتأكيد لو رأيت أي شخصٍ الآن سأجده جيدًا مقارنةً بحالتي!

تابعت لدقائق أحاديثه المتكررة مع نفسه وحركاته الغريبة حتى سئمت وقررت الرحيل والعودة لغرفتي الجميلة فمنزل المرء مهما كان تعيسًا يظل المأمن الوحيد له من قسوة الخارج!

لاحظت في طريقي للخروج من هذا المستودع معطفا أسود طويلا ذا فرو داخلي ورائحة عطرة على أحد المقاعد..

بالتأكيد هذا الأحمق قد قام بسرقته، فالتقطته خلسة ليدفئ بعض برودة جسدي ثم رحلت.

أثناء عودتي ظل عقلي يراودني بالأفكار اللعينة عما حدث قبل ساعات..

هل كانت حقًا هي! كيف ذلك وقد رحلت للأبد! هل عادت هلاوسي من جديد! سحقًا توقف عن التفكير، فلتصمت فحسب عقلي اللعين!

دلفتُ إلى غرفتي كضيف ثري يرتدي معطف أصحاب الجيوب الممتلئة والأذهان الصافية ليتواجه الفقر والغنى في محاولة بائسة لتحديد من سيفوز.. لا تتوقع سوى فوز الحزن، فهو الذي يدوم للأبد كما قال أحد أعظم الرسامين بالتاريخ "فنسينت فان جوخ".

حين أخرجت ساعدي الأيمن من أحد جيوب المعطف وجدت أوراقا تلامس راحة يدي وما كانت إلا حفنة من النقود ليست بالقليلة.. لم أهتم كثيرًا ولكن اشتهيت البيتزا وشعرت برائحتها تتسلل إلى أنفي في هذه اللحظة!

أسفل أحد الأخشاب كان مأمني البسيط لأغلى الأشياء، وضعت المال حتى الصباح ولكن وسط أوراقي المبعثرة قد وجدت ورقة دفعها الهواء القادم من أحد ثقوب الحائط الواسعة حتى كادت تبتعد وأفقدها.. أمسكتها وقرأت عنوانًا في مقدمتها

"رسالة انتحار" فشرعت بالقراءة..

"الحُزن يلتهم روحي والوحدة تعتريني بالكامل.. الشمس لم تعد تُشرق والقمر صار منطفئًا.. البشر أصبحوا مُزعجين للغاية والصمت في وجودهم حق.

العالم بالخارج لن يمنحك فرصة واحدة حتى للشعور بالانهيار.. ستتوالى الهزائم، وسيُحطمك الخذلان.. وسيدوم الألم ومرارة الفقدان.. أنا هُنا على حافة الهاوية أحدثكم دون وعي بالحياة البائسة، استطعت الانتصار أخيرًا وأصبحت قادرًا على المواجهة.

وها أنا الآن أودع الحياة التعيسة وأؤكد لكم أنني لم أكن ضعيفًا أو هاربًا.. ولكنني فقط قد انتهيت.

أوصيكم بالمثابرة، تحملوا قدر الإمكان، استمروا بالتقدم.. أنقذوا بعضكم البعض، هناك من يعانون على الهامش ويقتربون من الحافة كل يوم، أنقذوا من يتألم في وحدته الكئيبة، أنقذوا من يبكي كل ليلة، أنقذوا من اقتربوا من النهاية فالأمر ليس بالهين.. لا تحزنوا، ولا تهلكوا أرواحكم، هناك شخص يُحبنا بالتأكيد وسيحزن لذهابنا.. أرجو منكم التحمل وإنقاذ بعضكم البعض.

ولا تتعجلوا رُبما القدر يُخبئ لنا نهاية مصيرية بالغد..

رُبما ينتهي كُل شيء بالغد فتحملوا قليلًا!"

تنهدتُ بأسى بعد انتهائي من القراءة.. وتذكرت أيامي الأولى في هذه الغرفة ومحاولاتي الفاشلة بالانتحار، عجيب حقًا هذا الوقت الذي يمضي ويأخذ معه كل شيء.. إن كان جميلًا أو قبيحًا، وما نحن إلا مجبرين على الاستمرار في رحلتنا قسرا.

حجر آخر سقط على وجهي كعادة كل يوم.. كانت ليلة حافلة بالذكريات فما أن أسندت رأسي للخلف حتى بدأت المشاهد السابقة تنهال على عقلي.

قبل عام..

بصوتٍ يغلبه الضعف قالت:

- لا تعاتبني على أي شيء فعلته وأنا تحت تأثير الخوف!

ثم تابعت بعد محاولاتها الفاشلة في إخفاء انهيارها التام:

- لم أكُن بحاجة حبك، لم يُسعدني اهتمامك الزائد، انتظرت معك دومًا الشعور بالأمان ولم أجده!

ليأتي الرد بعد دقائق بصوت خافت:

- لقد قدمت لك كل ما أملك، حتى أصبحت كل أحلامي رؤيتك بخير وفي أفضل الأحوال.. رحيلك يحطمني،

وألمك بجواري يجعلني ساخطًا على نفسي.. سأتلاشى بين الاثنين حتى أنتهي!

شرود بعينيها ظل لعدة دقائق، تبصر الموج الخفيف بالمياه النيلية أثناء ارتطامه بالصخور تحت أقدامنا، تحاول إخفاء دمعة تلألأت في عينيها التي لطالما تسحرني كالموج الخفيف الذي يجعل الحياة أكثر هدوءا.. فقطعت صمت المشهد قائلة:

- لن نصلح سويًا أكثر من أصدقاء، وهذا إن بقينا!

اللعنة، كدتَ تخنقني بشباكك اللعينة هذة المرة، حسنًا لا تحزن ربما تنجح المرة القادمة.

سخيف هو عدم تقبل الواقع رغم إيمانك بحتمية صدقه، وكأنك تطلب فرصة أخيرة بعد انتهاء المعركة.. لماذا لا نتقبل رحيل الأحبة.. رحيلهم تمامًا عن الحياة، لماذا نبقيهم بداخلنا للأبد كطيف لا يبصره أحد سوانا!

هل ماتت حقًا.. هل ذهبت إيلين!

ورغم تأكيد الجميع...

مشهد إجباري

- أقسم لك، لقد فارقت الحياة.
- كانت بجواري تداعب رأسي بأناملها الناعمة.. جاءتني في المشفي!
- ربما هلاوس ما بعد استيقاظك من الغيبوبة.. اذهب وارتح قليلًا.
- أين.. قبرها!

أمتلك عقلا يستمتع بإفساد كل شيء، لا يجعلني أحيا بهدوء مثل الجميع، يتفنن في صنع الضجيج وتجسيد الذكريات المؤلمة، يصنع حتى ذكريات سيئة لم تولد بعد! وكأنه يرى الجميع سيحطمون روحي مرة أخرى، يُفقدني الثقة بهم قبل معرفتهم.. سحقًا لرأسي اللعين.

الجيد في الأمر أنني لم أعد أخشى السقوط، لأنني بالقاع من الأساس!

نهضت فجأة لأجد جسدي يطقطق وكأنه يلعنُني.. فقررت أن أتأكد للمرة الأخيرة فربما تهدأ روحي قليلًا.

نحو أحد أسطح الجيران كانت حبال غسيلهم هي خزانتي المؤقتة.. اتجهت إليها لأستعير منها حذاء وبنطالا وكنزة سوداء ستناسب كثيراً ذاك المعطف الأسود.

ألقيتُ قليلًا من الماء على وجهي، وبأطراف أناملي رتبت خصلات شعري في محاولة شبه فاشلة لتحسين مظهري.. أنهيت كل ذلك وارتديت الملابس وأصبحت أشبه أبناء الطبقة العليا بعض الشيء.. وأمتلك في سروالي بعض النقود لإشباع معدتي بالقليل من البيتزا وعقلي بالكثير من النبيذ..

هل شوارع القاهرة أصبحت حقًا تعيسة أم عيني هي الهالكة! فلم أتجول براحة هكذا منذ شهور. امرأة عجوز تجلس على رصيف أحد الشوارع العمومية في منطقة وسط البلد الساحرة.. لا تقوى حتى على طلب المساعدة.. تنتظر فقط شخصًا رحيمًا يترك لها بعض الجنيهات لتكمل حياتها، والعجيب بالأمر هو مرور الكثير من أمامها دون أن يُعيروها انتباها.. فالجميع يبصر المعدومين على أنهم غير مرئيين.. هل عجزهم عن ممارسة الحياة مهين لدرجة عدم الرؤية!

ترى هؤلاء الأطفال اللطفاء.. أظن أنهم المستقبل، والأمل، وكل شيء..

ما هذا كيف يتلفظون بهذه الشتائم وكأنه مرح وهزار!

كيف يتحدثون بمعاكسات لسيدات في عمر أمهاتهم!

أدركت وجود بعض الشباب يعلمونهم كيف يركضون خلف البنات لمحاولة إحراجهم بشكل مقزز.. اللعنة على هذا الجيل.

وأملي الأخير قد قتله شاب ارتطم بعجوز وتوقف ليساعده في جمع حقائبه التي سقطت وبعد دقيقة اكتشفت سرقته لهاتف ذلك العجوز دون إدراكه!

الخارج سيئ أكثر من اللازم، الأزقة المظلمة ليست مروعة مقارنة بقسوة الحياة بالخارج.

وصلت أخيرًا إلى بناية سمر صديقة إيلين وجلست أراقب نافذة منزلها لعلي أبصرها، مضت ساعتان حتى رأيتها تقف بالشرفة وبالمقابل كانت يداي تلوح لها بشكل عشوائي مما جعل البعض حولي يشكون في صحة عقلي، فلم أكن أريد جعلهم يتأكدون.. لاحظت وجودي وأشارت برأسها إليّ حتى أنتظر نزولها.

لم تطل في المجيء فهي ليست من الفتيات اللاتي يهتممن كثيرًا بالمظهر وأدوات التجميل الخادعة، أظن أن جمالها الطبيعي يُساعدها على ذلك، فهي فتاة عادية ذات وجه بسيط وملامح هادئة.. جاءت مرتدية سويت شيرت وبنطالا رياضيا وكذلك

الحذاء وبدأنا نسير كل منا لا يعرف كيف يبدأ الحديث، أو ما هو الحديث من الأساس!

حتى بدأت هي الحديث قائلة:

- أين اختفيت كل تلك المدة!

حاولت الرد ولكن الكلمات تأبى الخروج فأصمت، ترمقني هي بنظرات قلق لمحاولات حديثي المشوشة.. حتى استطعت هزيمة طبال رأسي وتحدثت:

- آآآآ، إيلين.. رأيتها.. بالأمس..

تتابعني هي بنظرات ألم وحسرة لتقاطعني:

- ادع لها، فإن عجزت أنت عن الوصول لها، سيصلها دعاؤك!

مسحت وجهي بأناملي وبالأخص عيني خشية سقوط بعض الدموع غفلة دون إدراكي.. حتى تابعت هي قائلة:

- في لقائنا الأخير أخبرتك عنوانًا لمدافن عائلتها.. ألم....

مشهد إجباري ٢

- اتفضل يا أستاذ!
- أريد شيئا.. أعتذر عقلي مشوش قليلًا.. أريد الدخول.
- في هذا الوقت! إنها الثانية بعد منتصف الليل!
- نعم، لا تقلق لن أطيل بالداخل..

صدي صوت سمر قد اخترق عقلي وهي تقول:

- مراد.. مراد.. هل أنت بخير!

تابعت السير قائلًا بصوت متقطع:

- نعم بخير.. لا تقلقي، حسنًا سأرحل.

لم أنتظر الرد وبدأت التحرك راحلًا عنها أبحث عن أقرب مكان يتسع لانهيار جديد.. أبحث مرة أخرى وأنا أعلم جيدًا أن لا مكان يسعني إلا بجوارها، وهي قد رحلت فما عادَ يسعني مكان!

لاحظت أنها تسير خلفي حتى ازداد النداء باسمي منها فتوقفت بغضب قائلًا:

- ماذا تريدين!

وضعت يديها على ركبتيها وهي تلهث قائلة:

- لمَ الصراخ! سأخبرك شيئًا هاما.. خاص بإيلين..

لتتابع بعد أن تنفست براحة:

- لنذهب ونجلس في مكان هادئ لنتحدث.

ذهبنا إلى أحد الكافيهات الهادئة والقريبة من منزلها.. في الدور الثاني الأكثر هدوءًا جلسنا، طاولة بجانب الزجاج تبصر بها أحد الشوارع القريبة من التحرير، شردت وأنا أفكر كم هي ساحرة منطقة وسط البلد، دائمًا ما أجدها تشبه الإسكندرية باختلاف وجود بحرها المتوسط، كلاهما منبع لبداية قصص العشق أو هدمها. على الأغلب فالجميع لديهم ذكرى خاصة هُنا أو هُناك.. أشعر دومًا بوجود رابط لا أعلمه بين الإسكندرية ووسط البلد بالقاهرة.. ربما لحُبي الشديد لهما أو لحبهم لي!

- تحتسي قهوتك دون سكر، أليس كذلك!

مسحت وجهي لأستفيق من شرودي وقلت:

- فيم سنتحدث؟

ظلت صامتة حتى تنهدت وأشرت بيدي لأحد العاملين حتى جاء نحونا وأخبرته بإحضار كوبين من القهوة.. لم أسلم من

نظراته الغريبة لي كعادة الجميع.. حتى وجدتها بدأت الكلام بعد انصراف العامل، وقالت:

- في الفترات الأخيرة قبل ذهاب عزيزتي عن عالمنا لاحظت تخبطها في الحياة وتبعثر كل أفكارها.. تتهرب من الخروج معنا بحجج غير مقنعة ولا تهتم بخصام أحدنا.. أو حتى خسارته! بصعوبة بالغة صارحتني بأنها تعيش أسوأ أيامها، لا تفارقها الكوابيس المرهقة والتي أدت بها إلى طريق مغلق تصل لآخره وتصطدم به، كنت أظنها بحاجة لبعض الراحة.. وإن كل هذا مجرد حزن عابر سيمضي مع الأيام.. حتى انطفأت تمامًا!

رمقتها وهي تتحدث بأسى بالغ حتى توقفت لتأخد بعض الأنفاس لتستطيع إكمال ما ترويه.

مؤسفة هي تلك النظرة التي تجدها بعين أحدهم قبل أن يبكي وتعجز عن مساعدته، مؤسفة حقًا.. انتظرت حتى تابعت حديثها:

- أخبرتني في ليلة بأنها تشعر بالموت يقترب كثيرًا نحوها.. مازحتها بعبارات تشجيعية من أحاديثها، ثم طمأنتها بأن كل...

قاطعت حديثها بغضب قائلًا:

- كيف لم تخبري أحدا بذلك! لماذا... لماذا..

لأبصرها تنفجر من البكاء فخشيتُ أن أُصيبها بالذعر أو أن تفسر غضبي كاتهام لها بأنها كانت سببًا في رحيل صديقتها، ولكن كان من الممكن ألا تذهب إيلين لو تحدثت هي!

لا أستطيع أن أحملها ذنبًا أكبر بكثير من مقدرتها لأنني أعلم أنها كانت الأقرب لإيلين وصمتها بالتأكيد كان دون قصد.

أكملت حديثي بلهجة هادئة قائلًا:

- أعتذر كثيرًا، لم أقصد قول ذلك.. أكملي حديثك.

ادعت هي الثبات وتظاهرت أنا بالصمود ليكتمل الحوار:

- منذ أسبوع وجدت هذه الرسالة في غرفة إيلين..

شعرتُ بنغزة في قلبي عند رؤيتي لورقة تحمل آخر حديث لحبيبتي الراحلة، بصعوبة تمالكت نفسي وأمسكتها مستعدًا للقراءة بعد تغيُر ملامحي وتوتر جسدي.. بأناملي المرتجفة شرعتُ في القراءة:

إنها استغاثتي الأخيرة.. أرجو أن ينتشلني أحدهم.. أرجو

٢ سبتمبر ٢٠١٧

٤:٢٠ م

لا أطيق التحمل لدقيقة واحدة، أعجز عن إخفاء انهياري التام للمرة الأولى منذ شهور من المعاناة.. كان دومًا يتحرر حزني في الثانية بعد منتصف الليل وسط أحزان وخيبات الجميع فلا يشعر أحد.. وها نحن بالرابعة عصرًا والشمس تحرق رؤوس الجميع بالخارج.. ولكن تحرق هنا قلبي فيتصبب داخلي بالذكريات المؤلمة والتعيسة.. سيل من الأحزان المتراكمة قد امتلأ عن آخره بداخلي ليفيض وأغرق وحدي.

أُعلن انهياري ونزع قناع الهدوء والكذب.. أريد الصراخ، ربما أحتاج لبعض التحطيم.. سأركض بجنون، هل يجب عليّ توديع الجميع؟ لن يفتقدني أحد! أين الجميع أنا وحدي تمامًا دون مبالغة، الجميع يدفعونني نحو الهاوية ثم يعاتبونني على ابتعادي عنهم.. أيُ عدل هذا أيها البشر! تبًا لهم.. ها أنا أتذكر تلك الليالي التي ابتلعني بها التفكير لأعجز عن النوم لأيام متواصلة يتآكل قلبي من شدة حزنه، ويتهشم وجداني رغمًا عني، انتهت الحياة وأنا على قيدها، فقط الكثير من الأفكار الانتحارية بجانب حنيني المتواصل للغائبين الذين قد ابتعدتُ عنهم ومع ذلك أفتقدهم والقليل من الخوف.. بل الكثير منه

في الحقيقة لتُصبح وبلا شك منزوع الحياة! أعلم أنني لست على الطريق الصواب ولكن أؤمن بأن لا أحد يُحمَل فوق مقداره.. وأنني قد تحملت الكثير ولم يعد بقدرتي سوى الرحيل والاختلاء بالفناء للأبد. أخبرني أحدهم يومًا أنه للحياة بسعادة عليك اعتزال كل ما يؤذيك.. أخبرك اليوم أنني قد استمعت إلى نصيحتك وقررت اعتزال الحياة وترك كل شيء..

عجزت عن التماسك هذه المرة، نهضتُ مسرعًا لتسقط القهوة من على الطاولة وتسقط دموعي حزنًا لما قرأت.. صوت ارتطام ذلك الفنجان بالأرض يشبه كثيرًا صوت ارتطام تلك الرسالة بقلبي.. لا أعلم ماذا كانت تُعاني حتى تفعل ذلك ولكن بعض الأحيان تخيُلك للألم يصبح غير كاف للتحدث عنه.. فقط يحق لأصحابه البوح به أو الصمت.

خارت قواي لأسقط مكاني، أستمع بعض الضجيج حولي ربما صوت سمر أو ذاك الشاب الذي أحضر القهوة، أغرقتُ رأسي بين ركبتي لتسبح دموعي في بركة صغيرة بحُرية..

مشهد إجباري ٣

- إيلين، أنتِ هُنا!
- لماذا جئت..

- أنتِ.. على قيد الحياة، لا أصدق! هيا بنا.. المكان مظلم هنا وأنت لا تُحبين الظلام.
- لكنني ذهبت، ولن أعود مجددًا.. ارحل ولا تأتي مرة أخرى.
- لا، سنذهب سويًا.. لن أتركك وحدك هنا.. سأنتظرك!

أتوسل إليك.. لا تفعلي بي هذا، لن أتحمل.. رجاء استيقظي لنرحل..

شعرت بيد تربت على كتفي قائلة:

- مراد.. اهدأ.. اهدأ سيمضي كل ذلك.

قالتها بصوت متحشرج من البكاء.. كيف تساعد شخصًا يبكي وأنت تبكي مثله تماما؟ بل وتحاول إقناعه بأن كُل شيء سيئ سينتهي وأنتَ تُعاني معه في نفس الحفرة!

بصعوبة بالغة استطعت لم شتات ما تبقى من روحي لأنهض وأجلس في مكاني مجددًا.

بينما يتابعني العاملون وحتى الجالسون بأعين مذهولة من هذه الفوضى التي تحدث، لم أهتم وتابعت هي ما تبقى من حديثها:

- الجميع يقولون عن إيلين كافرة! بما فيهم عائلتها أيضًا.. صديقتي انتهت بسبب إيذاء الجميع لها وهي حية، والآن يفعلون نفس الشيء حتى بعد رحيلها.. ولكني لن أسمح لهم بذلك.. هل ستساعدني!

***

إيلين

ليت الحياة تعود يومًا!

كيف يستعيد المرءُ شغفه للاستمرار بالحياة؟ لا أعلم كيف أو متى حدث هذا ولكنني فجأة انتهيت. ازدادت رغبتي بالرحيل أضعافًا عما كان في السابق، المضحك هو أنني أفقد الأمل بينما أعمل لايف كوتش، أنشر الطاقة بين نفوس الجميع وأطمئن روحهم بأن غدًا أجمل.. أُعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم وإيمانهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام ليبتسمون لي برضا فأبادلهم ابتسامة كاذبة ثم أرحل!

أتساءل دومًا بين طيات روحي هل أنا كاذبة.. أحدثهم عن الأمل وأنا لا أجد سوى الألم! عن روعة الحياة التي لا يأتيني منها إلا قسوتها! ولكنهم يتحسنون، لذلك يمكننا اعتبارها كذبة بيضاء لطيفة ليس إلا.

تنهدت بأسى وأنا أمزق تلك الورقة التي أوثق بها خيباتي كل يوم، ثم أشعلت الضوء لأبصر غرفة مبهجة أكثر من اللازم.. اللون الوردي بكلِ مكان، دُمى حمقاء تتابعني بنظراتها المخيفة

طوال الوقت وأوراق ممزقة هنا وهناك، أمامي مباشرة مكتبتي التي هي ملاذي الوحيد للهروب من كل هذه الصراعات، أقرأ لأهرب من هنا، إلى عالم ليس بشعًا بقدر الحياة بين الجميع بالخارج.

وسط أريكة زرقاء ذات ملمس ناعم أجلس الآن، جاءتني نوبة حزن مفرطة انفرط معها قلبي وكادت تسلب روحي قبل ميعاد رحيلي، وددت البكاء بشدة ولكني عجزت عن فعل هذا وكأن دموعًا حارقة انسالت بداخلي لتحرقني بنيران الصمت. نهضتُ وأنا أمسك رأسي بشدة في محاولة بلهاء لإيقاف هذا الألم، ثم ودون مقدمات صرختُ أمام المرآة قائلة:

- لماذا تفعلين بي كل هذا!

بأطراف أنامل قدمي وبخطوات هادئة للوراء جلست على كرسي خشبي أمام المرآة وتحدثت:

- أنتِ من فعلتي.. لا تختاري الرحيل ثم تبكي من الوحدة!

لأقف غاضبة وأنا أصرخ قائلة:

- ابتعدت خوفًا من إلحاق الأذى بهم.. فرط محبتي هي ما دفعتني دومًا للرحيل، ابتعدت حُبًا لهم، ولم يفهم أحد ذلك!

جلستُ مرة أخرى وبارتياحية قد تحدثت:

- خطأ، رحيلك أفسد كل شيء.. حطمتِ قلوبهم، ولم تحرقي سوى روحك، أشفق عليكِ وعلى غبائك!

بدأت الدموع بحرق وجنتي كما أردت، ثم أصابتني حالة من الهيستريا للمرة الأولى، وهذا لم يكن في الحسبان.

أمرر أناملي وسط خصلات شعري بين الثانية والأخرى، وأكرر جملة واحدة

"سينتهي كل شيء".

خارت قواي لأسقط مكاني بينما تعلو صرخاتي من البكاء، مطمئنة لأنني وحدي بالمنزل فلن يأتي أحد ويراني هكذا، وخائفة لكوني وحيدة وليس معي أحد ينقذني!

كنت أتوسل لها حتى تساعدني، أرجوها إخباري بطريقة مناسبة لتنتهي هذه المأساة التي أعيشها.. الظلام يحاول اقتحام المكان وأظن أنها النهاية.

السيئ هو عدم قدرتك حتى على وضع النهاية، فتنتظر..

وصلنا إلى وضع السكون، حيث تصمت فقط وتظل مقرفصًا مكانك بانتظار خلاصك أو معجزة تجعل كل شيء على ما يرام، فتحتُ عيني غفلة لأجدني جالسة وسط سريري وأن كل ما حدث كان مجرد تخيل من عقلي وأفكاري الساذجة.

كاد الصداع يفتك برأسي، فحاربته بكبسولتين من المسكن وكوب قهوة خالصة من البن السادة دون أي ذرة من السكر الكاذب، فلا يوجد شيء حلو بالحياة، كل الأشياء مُرة.. مجبرين على ابتلاعها.

حدث بعدها أنني غفوت في نوم عميق كنت أفتقده منذ مدة، كان كافيًا لجعل ليلة جديدة تمضي وينتهي عذاب السهر حتى الصباح وأنا أبكي على ما حدث، لستُ مدركة كيف لفتاة عشرينية تصبح أكبر أمنياتها أن تنام بسلام فقط!

كعادة كل يوم أستيقظ فلا أجد أحدا بالمنزل. الجميع ذهبوا إلى العمل أو المدرسة، مؤلم هو الشعور بأنهم يتجاهلونك وكأنك لا تحيا من الأساس!

قدرتي على تحمل البرودة تساوت مع بعض الدرجات المئوية تحت الصفر، حقًا كموسكو هو قلبي قارس البرودة، ولكنه أبيض كالثلج، يذوب مع شروق كلمة جيدة بحقي أو اعتذار بسيط.

أشعر ببعض التحسن، الآن يمكنني تحمل وضع نهاية لكل ما يحدث.. أوراقي الجميلة هي حقًا صديقة رائعة وقد حملت عني الكثير في الآونة الأخيرة، وها قد حان أن تلعب الدور الأخير في هذه القصة..

سأكتُب الآن اعترافي الأخير..

هل تمنى شخص الموت من أجل رؤية أحد يحبه!

ولو للحظاتٍ قبل بعث روحك، ستشاهد حبًا بأعينهم تجاهك حتى وأنتَ تعلم أنك لن ترى شيئا آخر بعدها.. ومع ذلك تتمنى الموت، أظنها ستكون قصة موتك المكونة من ثلاث مشاهد رئيسية ستمر بهم لا محالة.

المشهد الأول

تقف عاجزًا أمام نفسك، تشاهدك وأنت وسط بركة من الدماء في منتصف غرفتك، وربما متحطمة رأسك أسفل عجلات سيارة

على طريق سريع.. أو تجد روحك تطفو على سطح مياه النيل، جميعها أمور قاسية ستدمع لها عينك لمجرد تخيلها.

المشهد الثاني

هل تفتقد الحب إلى هذه الدرجة؟

ستضحي بحياتك من أجل فقط رؤيتهم يحبونك!

شاهد الآن أحباءك، أهلك، أصدقاءك.. جميعهم قد وقع خبر وفاتك كالصاعقة على قلوبهم، يبكون، بل ينخرطون في البكاء الذي يلي الصراخ، يفتقدون وجودك الذي تجاهلوه منذ مدة، يصرخ أحدهم متمنيًا أن تعود للحياة بعض الدقائق حتى يحتضنك، وتبكي أنت لمجرد رؤيتهم متأثرين إلى تلك الدرجة.

إذن لماذا تركوك وحيدًا منذ البداية؟

قتلوك وأنت على قيد الحياة ثم يحاولون إحياءك وأنت في رحم الموت، أيُ منطق هذا أيها الحمقى!

المشهد الثالث

هدئ من روعك، فقد شاهدت حُبًا كبيرًا لك بأعينهم، ونلتَ ما ركضت خلفه، إياك وتمني العودة للحياة الآن فقد فات الأوان، ليس بوسعك شيء تفعله سوى توديعهم لبضع دقائق قبل أن

يرحلوا، وتبقى روحك هنا مقيدة بجانب جسدك لتظل وحيدًا حتى النهاية!

اركض، اصرخ، ابكِ، جميعها محاولات فاشلة للهروب من هنا والنجاة مما قد ارتكبت، خُدعت بأوهام عقلك السخيفة وانسقت في الدراما القصصية لقصة موتك، كان عليك أن تؤمن بأن هناك أحد يحبك وإن لم تجده، وإن لم يخبرك، ها أنت الآن قدمت روحك في سبيل البحث عن الحب، هنيئًا لك على ما حصدت من اللاشيء..

ومع أسفي الشديد ها أنا أشاهد جسدي وسط بركة من الدماء أمامي، أقرر النظر للخلف فأجد جسدي يطفو على سطح مياه النيل، أبكي ثم أحاول الركض فأجدني أسقط وأسقط بانتظار ارتطام وجهي بأرض صلبة ستجعلني فتاتا لا محالة..

قصة موتي اللعينة قد بدأت، سامحوني.

إيلين.

***

عزيزي الراحل فينسنت فان جوخ

أخبرتني يومًا بأن هذا الحزن سيدوم للأبد وقد دام، لم تكُن كاذبًا حين أخبرت ثيو بحقيقة أنه لن ينتهي البؤس أبدًا.. فما انتهت إلا أرواحنا.

أهديك بعض المعاناة من أعمق الجروح بداخلي..

لعلكَ تقرأ كلماتي فتُهديني دعوتك الخاصة لأُحلق نحو الربيع.

الكاتب

لا تعطيني العالم كله حتى أُحبك، فقط شاركني إياه!

على أطراف ساحل الإسكندرية يجلسان، حيز مساحة صغير يفصل بين جسديهما، بينما مسافة العالم كلها تفصل بين روحيهما، مهما اقتربا!

تحدث وهو ينظر إلى أبعد مكان يظهر على مرمى بصره:

- لقد انتهينا يا إيلين، انتهينا للحد الذي يجعلنا لا نصلح إلا لبعضنا البعض!

تُحرك هي ساقيها تارة للأمام، ثم تارة للخلف، لتلتفت بعدها نحو وجهه بابتسامة باردة وتتحدث:

- لم ننتهِ، فقط انتهت قصتنا يا مراد، عليك تجاوز الأمر.
- وهل تجاوزتيه؟

بعد تنهيدة مليئة بالأسى قالت:

- لم أتجاوزه، ولكن أؤمن تمامًا بأننا لن نصبح معًا مهما تخطينا من صعاب، كان عليَّ الرحيل، وكان عليك تقبل ذلك.

كعادته أشعل لفافة من التبغ وهو يستمع لها، وعلى عكس عادتها لم تمسك باللفافة وتلقيها في البحر، تركته يفعل ما يشاء بكل هدوء على غير المعتاد.

عاد بجسده للخلف حتى أصبح مستلقيًا يبصر الطيور تحلق فوقه مباشرة.. ينفث دخانه ليجعلهم يسبحون به حتى استمع لإيلين وهي تتحدث:

- لو تعلم كم اشتقتُ إليكَ لما عاتبتني على شيء، إنه اللقاء الثالث عشر ولم نجد حلًا واحدًا يمكنه إنقاذنا، ربما معك حق لقد انتهينا، ولكن للحد الذي يجعلنا لا نصلح لأي شيء.

ثم وجدها تقف وتنظر للسماء بابتسامة هادئة، تبسط ذراعيها يمينًا ويسارًا ورأسها لأعلى في مشهد جعل مراد يبتسم لرؤية حبيبته تحتضن العالم، فربما تحتضنه هو أيضًا بعد دقائق!

وسرعان ما أصبحت الابتسامة صدمة لاذعة، والدقائق التي ينتظرها بشغف كابوس مرعب. فقد سقطت إيلين..

في ثانية واحدة سقطت نحو الأسفل واختفت!

ليصرخ هو فزعًا:

- إيلين!

نهض من سريره في حالة يرثى لها، يلتفت برأسه باحثًا عنها حوله محاولًا استيعاب ما قد حدث، أسوأ شعور قد يمُر على قلبك ويمُزقه، هو أن تغمره السعادة في الثواني الأولى من استيقاظك، ثم ينفرط من الحزن حينما تُدرك أن ما رأيته لم يكُن إلا حُلم عابر..

شعور مُميت يفسد يومك من الدقائق الأولى.. بل ويفسد كافة محاولاتك في التظاهر بالثبات كل هذه المدة حين تبكي بحرقة على كل ما حدث..

لحظة غاية في الأسى لن يفهمها سوى من احترق بنيرانها من قبل، وغرق في فخ الذكريات حتى رأسه، وسقط معلنًا عن اشتياقه، ثم تدارك الأمر وابتلع مرارة الواقع.. وأن هذا ليس كابوسًا وسينتهي.

وإنما هي حياته!

أحدهم بالخارج يطرق باب الغرفة غير الموصد من الأساس، حتى دلفت سمر وهي تلقي نظراتها الحزينة للغرفة، بل وهيئة مُراد، فتحدث هو لاهثًا:

- كيف جئتِ إلى هُنا... آآ.. لم أُخبرك.. بمكاني.

اختبأت دموعه بين قطرات العرق، جميعهم انسالوا على وجهه وكأننا وسط أغسطس وليس ديسمبر!

فبادلته الحديث:

- لم أثق بحديثك ليلة أمس، كان عليَّ متابعة خطواتك حتى أجدك عندما أحتاجك، أمامنا يوم طويل، تجهز.

ثم خرجت وهي تتابع بعينيها سقف الغرفة الذي يستعد للسقوط، وفرك هو عينه في لحظة تعيسة بعد كابوس مرهق.

وكأنها إشارة دون معنى لما هو قادم!

اتجه الاثنان في طريقهما إلى مقهى في أحد أزقة وسط البلد الشهيرة..

وقبل أن يدخلا بثوانٍ سمعا صوت شيء قد انفجر، فركض الجميع نحو مصدر الصوت الذي أثار فضولهم.

اللعنة!

كانت طلقة نارية فجرت رأس ذلك العجوز المُلقى على الارض، فُزعت سمر لما رأته من جثة هامدة في منتصف الطريق وحوله الكثير صامتين كالجماد من هول ما قد حدث للتو، وبخطوات هادئة كان يسير مُراد ولا يبدي أي رد فعل لما برزت أعين الناس من رؤيته.. يستمع فقط لأحاديث خافتة من السائرين وأصحاب المحلات الذي شهدوا تلك الواقعة.

- إنه السيد حميد!
- لقد رأيته يقف فجأة بمنتصف الطريق ثم لم يتردد لثانية في الضغط على الزناد وتفجير رأسه!
- يقطن في ذلك المنزل بالدور الثاني.
- يا للهول العم حميد!

اتجه مُراد نحو منزل السيد الراحل في هدوء ليصعد مترددًا إلى موطن هذا العجوز، كان باب الشقة مفتوحًا على مصراعيه على عكس حياة صديقنا الراحل الذي ضحى بحياته في حالة من الغموض.

فدلف مراد في خطوات هادئة يتلفت حوله وترتجف بعض أصابعه.. أبصر مذكرة بُنية اللون موضوعة بشكل واضح على الطاولة فالتقطها كفهد أمسك بغزالته ثم ركض سريعًا أعلى الشجرة.

عاد إلى سمر ليجدها شاحبة الوجه تتقيأ في إحدى الزوايا، مرت دقائق حتى عادت لطبيعتها على طاولة متطرفة قليلًا عن المقهى حيث نجلس.

ولكن احتست قهوتها سريعًا ثم نهضت راحلة لتغيير ملابسها واستجماع عقلها من جديد، ولم يعارض مراد على ما قالته، فهو يملك مذكرة يقتله الفضول لقراءتها.

رحلت سمر وفتح مُراد المذكرة ليجد الصفحة الأولى تحمل هذه الجملة "إن لم تقتل وحدتك، ستقتُلك، مهما تأقلمت"

أخذ رشفة من كوب قهوته المُرة ثم تابع قراءة الصفحة التالية:

- لقد مر ثلاثون عامًا من الوحدة، لم أعد قادرًا على المواجهة، الحياة ليست عادلة كما يقولون.. ما الذي يحتاجه شخص تجاوز الستين من عمره غير أشخاصٍ يهتمون به، يحبونه بلا أي دافع.. يتحدث إليهم ويحكي قصصه في الحياة بكل فخر، يستمع لصراخ أحفاده في المنزل، لامرأة تؤنس وحدته وتشاركه قسوة العجز والشيب، تشاركه برودة الليالي الشتوية وترطب على قلبه في حرارة الصيف اللاسعة. الزمن قد سلب أجمل ما أعطتني الحياة.. امرأة كالألماس جعلتني شخصًا لا يقلق أو يحزن.. سندا وزوجة تستحق كل الحب.

حادث مروع أنهى حياتها لتتركني مع طفلين كنت أظن أنهما ما تبقى لي في الحياة، احتضنتهم من قسوة العالم بالخارج، حاولت جاهدًا توفير لهم كل سبل البقاء ولكن.. رحلوا. مؤسف أن تُعلم شخصًا لتجعله الأفضل، تعطيه كل ما تملك دون تردد، تثق ثقة عمياء بأنهم لن يخذلوك أبدًا، ومع أول نجاح لهم يتركونك خلفهم دون حتى وداع بسيط! صدمة رحيلهم كانت مفجعة.. لم أضع احتمالًا واحدًا لحياتي في غيابهم، لم أتزوج امرأة أخرى واكتفيت بأبنائي، وهم لم يجدوني كافيًا.. أعطيتهم كل شيء حتى لم يعودوا بحاجة لي ورحلوا، مؤسف أن تأتيك الضربة من أقرب الأشخاص لك.. في الحقيقة الخذلان الأسوأ على الإطلاق لا يأتي سوى من أقرب الأقربين إلى قلبك، فلهذا يُسمى خُذلان!

أخذ رشفة أخرى من القهوة ثم بدأ صفحة جديدة، كانت فارغة.. ظل يُقلب الصفحات ليجدها فارغة فما عدا الصفحة الأخيرة فقرأ بشغف:

- لا تتعجب من كل تلك الصفحات الفارغة، فهكذا قد مضت حياتي لعشرين عامًا، فارغة تمامًا أنتظر عودتهم، أنتظر مثلك معرفة النهاية ولكن لم يعد بمقدرتي الانتظار أكثر. والآن أتحرك بصعوبة، المرض ينهش

جسدي، أشتاق لعائلتي ولا أجد حتى طيفهم، أجد دومًا طيف امرأتي يؤنس وحدتي ويدعوني للذهاب معاها، أنا أفتقد عزيزة قلبي وسأذهب معها إلى النهاية.. فلقد عانيت للحد الكافي، الله بانتظاري الآن. كنت أتمنى الاعتذار لأحد لأنني سأرحل، ولكن.. لم أجد أحدا! سواك يا من تقرأ الآن كلماتي.

مسح وجهه بعد تنهيدة عميقة أخرج معها دخان سيجارته وقال محدثًا نفسه:

- ستقتُلني الوحدة يومًا ما، ولكن لن أنتظر كثيرًا مثلك أيها العجوز، لا تحزن فقد آلمني رحيلك ويؤسفني ما قد مررت به، أرجو أن يسامحك الله.

جاءت سمر مرة أخرى بعد أن عادت الحياة إلى روحها وتجاهلت ما قد حدث رغم قسوته.. لتفتتح الحديث بجدية قائلة:

- ما الذي قد يدفع شخصًا للانتحار؟

مرر أصابعه وسط جبينه مرارًا ثم نظر إلى مُذكرة السيد حميد بُنية اللون وابتسم بأسى ثم تحدث بهدوء شديد قائلًا:

- لا أحد تهون عليه نفسه حد القتل إلا وقد قتلته الحياة مرارًا وتكرارًا وأفقدته ثقته بنفسه، بل وثقته في أحقية مواصلة الحياة، لا يستيقظ أحد سالمًا ثم يتخذ قرارًا بالانتحار، هناك دومًا أشخاص قاموا بإفساد حياته للحد الذي يجعله لا يرى بصيصا من الأمل حتى، هل يُعاقبون؟ هل نتهم أحدهم بالكفر مثل الشخص الراحل؟ لا.

أخذ نفسًا بينما تحدثت سمر بحدة قليلًا:

- لقد حدثت أشخاصًا كثيرين قد حاولوا الانتحار وفشلوا، جميعهم أجمعوا على أنهم لم يدركوا ما يحدث إلا بعد انتهائه، وكأن يدا خفية تسحبهم نحو الهاوية وهم لا يستوعبون، ربما قسوة الآلام تشوه قدرتك على استيعاب ما يحدث حتى تفيق فتجد نفسك عدت من الموت أو أصبحت طيفًا في السماء. لا أحد يقرر الانتحار من قسوة ما تعرض له، بل فقط إنها غفلة في غياب العقل، في غياب البشر، في غياب كل الأحباء، عندما تُغيب عن العالم وتفقد عقلك هل تُحاسب على أخطائك!

يستمع مراد باهتمام على غير عادته فهو شخص يعلم جيدًا قسوة الآلام التي تدفعك نحو الهاوية، بل هو من الفاشلين الذين عادوا من رحم الموت.

قاطعها قائلًا:

- بعض الرفاق بالخلف أظنهم مهتمين للغاية بما نتحدث!

ما أن عادت سمر برأسها للخلف حتى نهض أحدهم وجاء ناحية مراد وتحدث بتلعثم:

- آسف للغاية ولكن هل بإمكاني مشاركتك بعض الآلام، التي تدفعنا للانتحار!

نظر مراد بعينه لسمر في صمت تام ثم عاد بعينه لهذا الشاب وقال:

- بالطبع، تفضل.

فتحدثت سمر باستفسار:

- ماذا عن أصدقائك؟

لم يجب على سؤالها، وسحب كرسيا بهدوء ثم تنهد وهو يعبث بخصلات شعره المتساقطة على وجهه ليبدأ حديثه بعدها قائلًا:

- أنا فريد، بمنتصف عامي الخامس والعشرين، أعلم أن وجودي هنا الآن وبهذه الطريقة أمر غريب عن المعتاد، لكن لم أستطع أن أتغاضى عن استماعي لما تقول.. تلك الآلام التي تدفعنا رغمًا عنا إلى الهاوية ربما نابعة من عذاب الضمير! أرغب أن أعترف أنني شخص سيئ لم أتأذى بقدر ما سببت الأذى للكثير.. أتعلمون أنا أيضًا أتألم! أبصر الكره بأعين المقربين لي تجاهي، ولكن ليس بقدر كرهي لنفسي، أحيانًا تدفعنا أعمالنا السيئة إلى الهاوية، أصل دومًا إلى حافتها ولكني جبان، لا أمتلك شجاعة الرحيل!

مسح بأطراف أصابعه قارورة الدمع من عينيه قبل أن تنصب على غفلة منه، تنفس بصعوبة ثم أكمل:

- أمتلك كل ما أريد، هذا ما تربيت ونضجت عليه، هكذا علمتني عائلتي ذات السلطة والنفوذ، ألا أتردد في سلب سعادة البعض من أجل إرضاء غريزتي في الامتلاك.. لي مطلق الحرية ولهم القدرة على حل كل مشاكلي. أنا مجرد وغد لعين أعيش على أحزان الآخرين وتعاستهم، أتمنى الرحيل كل ليلة ولكن بلا جدوى، لقد فقدت الأمل في الحياة والمستقبل، وحتى في الخلاص، والآن تركت عائلتي وأعيش وحدي.. ولولا..

نظر للخلف نحو أصدقائه ثم تابع:

- سليم وشمس، لولاهم لكنت جثة متعفنة تزعج الجيران فيجدونني، لا أعلم هل أنا سعيد لأنهم أنقذوني من محاولة الانتحار الوحيدة التي كنت شجاعًا بها، أم حزين لأنني ما زلت على قيد الحياة.

ليقاطعه مراد بلهجة قاسية:

- هل تحدثني عن حزنك لأنك سبب في تعاسة الآخرين! يا رجُل أنت لا تعلم شيئًا عن الآلام التي يعيشها من وقعوا في مصيدة الحياة وتحطمت أحلامهم ثم فقدوا أحبتهم، ثم خذلهم أقرب الأصدقاء.. ناهيك عن كل هذا هل تعلم شيئًا عن آلام الفقر والجوع؟ هل حزنت يومًا لأنك لا تملك جنيهًا واحدًا وبطنك يلعنك لأنك تتركه فارغًا منذ أيام! هل أحببت يومًا وأخبرك والدها بكل قسوة أنك لست شخصًا مناسبًا لكونك عديم القيمة وأموالك تكفي لشراء طعام يومين لا أكثر! والآن ستمارس علينا لعنتك مسببًا لنا التعاسة والألم ثم تعود وتبكي لغيرنا معبرًا عن حزنك.

وقبل أن ينهض مراد تدخلت فتاة قائلة:

- هل تسمح لي باختلاس بعض الدقائق من وقتك يا مراد؟

فاتنة ذات شعر برتقالي ووجه ناصع البياض تتساقط عليه بعض الرمال السحرية، أقصد النمش.

لم يقدر مراد ألا يسمح لها فقال:

- تفضلي بالطبع.

تدخلت هنا سمر بنظرات خوف إلى مراد ولكنه طمأنها بعينه وبأن كل شيء على ما يرام.

جلست الفتاة وتحدثت بابتسامة:

- أنا شمس..

مدت يدها لتصافح مراد.. ثم تابعت الحديث:

- أعتذر لاقتحامنا الطاولة بهذه الطريقة ولكن أظن أن شيئًا ما يربطنا ببعضنا البعض، على الأرجح الألم هو الرابط الوحيد، جميعنا هنا تألمنا وفقدنا أعزاءنا وانهزمنا حتى باتت الهزيمة وصمة عار على وجوهنا، ونهشنا الحزن إلى الحد الذي يجعلنا نرى العالم بأعين

باهتة، أنت مثلًا فقد مر عليك العالم ودهسك بقسوة الفقدان أليس كذلك؟

ظهرت ملامح الاندهاش المصطنع على وجه مراد رافعًا حاجبيه بسخرية، فتابعت هي:

- أرى ذلك في عينيك، ليس شيئًا يدعو للخجل جميعنا هنا دهستنا الحياة مع اختلاف أسباب كل شخص بيننا، سأخبرك شيئًا.. لو تركت لك والدتك حرية البقاء بالخارج وأنت في سن العاشرة هل كنت لتعود مبكرًا؟ لا كنت ستنهك جسدك في اللعب والذهاب والإياب حتى صباح اليوم التالي ثم تعود لتنام، ثم تستيقظ لتكرار يوم آخر بنفس النمط.. مع مرور الوقت ستدخن السجائر إن لم تغضب أمك من رائحة الأدخنة بملابسك، ستتعارك مع الشبان حتى تصبح وغدًا قاسيًا من الذين يقفون على ناصية الشوارع.. كل هذا لأنك امتلكت الحرية في وقتٍ كان عليك أن تخضع فيه للأوامر، امتلكت أجنحة ولكن لم يعلمك أحد الطيران، فستسقط بالنهاية.. لا تعطني مسدسًا وتضعني بين المجرمين ثم تعد وتلُمني عندما أصبح زعيمًا للمافيا! نحن البشر نتلوّن بما تضعنا الحياة على وجهته يا صديقي. وهكذا كان فريد، امتلك كل مقومات الفساد

بل ووسط بيئة تشجعه على الشر والقسوة، لا تلم أحدا فتح عينيه وسط الضعفاء فأصبح ضعيفًا، أو امرأة ولدت بالخطأ من عاهرة وقواد فأصبحت فتاة ليل يتغنى بمفاتنها الجميع، أرى أن نصوب اللوم على الشخص الذي وضعنا في وسط الخراب من البداية، هو من يستحق أن يلام!

صمت مراد بعد استماعه لكلماتها بينما ردت سمر غاضبة:

- ولكننا لسنا حيوانات حتى نعيش وفقًا لما يحدده لنا الآخرون، لن يضع أحدهم المسدس بكفيك عنوة، ولن يربط وشاح الرقص على خصركِ أحدهم دون أن توافقي، يمكن لأي شخص تغيير حياته في لحظة، بل في خطوة واحدة، ولكن لا يخطوها دومًا بدافع الخوف. لسنا مجبرين على الفسق حتى لو وضعونا ألف مرة بداخله، هناك دومًا حل ولو كان صعبًا، ونظنه مستحيلًا.. لذلك نظريتك عن الحياة خاطئة يا صديقتي!

ساد الهدوء بين الجميع، مراد ما زال شاردًا بما قالته شمس، وفريد يمسك ذراعه اليسرى بأنامله المرتعشة محاولًا تمالك أعصابه والبقاء وسط هذا النقاش الحاد حتى ولو أصبح

مستمعًا فقط، وشمس أخرجت من حقيبتها لفافة من التبغ المملوءة بالحشيش وأشعلتها وهي تستند بظهرها للخلف وتميل برأسها لأعلى.

حل الليل بظلمته وكعادة الشتاء بليالٍ طويلة يؤنسها طيف أعز الراحلين.. فتم استثناء ليلة ليؤنس الأصدقاء وحدة بعضهم البعض.

اقتربت الساعة من الثانية عشر بعد منتصف الليل...

مر الوقت سريعًا رغم قلة الحديث والهمس بين الحين والآخر، إلا أن الجميع كان يترك قبلته على فلتر اللفافة الذي وضعته شمس بإتقان وبدقة في مؤخرة السيجارة، فيما عدا سمر التي لم يرق لها الأمر فنهضت راحلة، بينما بقي مراد بعد أن ودعها.

- لننهض الآن ونذهب إلى منزلي، لدي زجاجتين من النبيذ سيجعلوا كل هذه الآلام تذهب في مهب الرياح.

قالها فريد ولم ينتظر الرد، فقام وجمع أشياءه وألقى عملة ورقية من الأعلى في فئة الجنيهات على الطاولة ووسط أكواب القهوة المتراصة بكلِ مكان.

ابتسمت شمس ابتسامة ماكرة بعد أن أظهرت لهم طرف سيجارة أخرى بداخل حقيبتها لتركض بعدها نحو السيارة

الخاصة بفريد في لهفة لما ينتظرهم من حماس، ولم يمانع مراد بصحبتهم فهو شخص لن يعاتبه أحد على عدم عودته للمنزل مبكرًا أو حتى عدم عودته من الأساس!

فقط لفت انتباهه ذلك الشاب وصديقهم الثالث، سليم.. لم يتحدث أبدًا، فقط أشار برأسه معبرًا عن موافقته ثم دلف إلى السيارة في حالة من الخمول.

مازالت الرؤية مشوشة حتى بعد أن انزاح الستار.. ولكن الصوت واضح ومألوف، إنها معزوفة موسيقية من الأفضل تاريخيًا للعظيم بيتهوفن

"معزوفة الحرب الشهيرة" تتعالى الموسيقى لتنضم إلى الأضواء فتاة فاتنة بكل معنى الكلمة، تتراقص بلوعة أمامه، مثيرة هي بتنورتها القصيرة وحمالات صدرها السوداء التي تحمل بداخلها ثديين أكثر إثارة.. ولكن كعادة اللحظات الجميلة تذهب سريعًا فقد سرق الكادر شاب سكير يتراقص بشكل غير متزن وبراحة يديه زجاجة من النبيذ، سماعات الأذن جعلته في عالم آخر، في حين إن اتجهنا لليسار قليلًا سنجد شابًا يبدو أصغر في السن يدخن السجائر بطريقة جنونية وينفث الدمع من عينيه مع كل سحابة دخان تخرج من رئتيه!

هكذا كان المشهد في عين مُراد بعد أن عاد لوعيه من تأثير النبيذ المعتق منذ سنين، لقد كانت زجاجة تم الاحتفاظ بها بعناية لتصبح بهذا الشكل والمذاق، هي زجاجة نبيذ رائعة.

بدأت الأجواء تهدأ رويدًا رويدًا، اعتدل مراد في جلسته على الأريكة الفاخرة التي جعلته يدرك أنه لم ينم منذ مدة طويلة.. الستائر المعلقة، وشاشة التلفاز العملاقة التي تعرض بعض الحطب المشتعل، والموسيقى الهادئة.. أضافوا لعالمه لحظة رائعة.

منزل عظيم لشخص لا يستحق، فريد الهواري المعلقة شهاداته الجامعية والعملية بكلِ مكان، بالطبع اشتراها بالأموال!

مستلقيًا على الأرض يغدو في نومًا عميق، بعد جولة رقص شاقة، بينما يجلس صديقنا المُريب صامتًا تمامًا ينظر للنافذة أمامه بعد أن أنهى كل السجائر التي معه، والجميلة شمس مستلقية الآن بجسدها شبه العاري على كتف مراد في مشهد يعيشه للمرة الأولى، دقائق مرت وهو لا يعلم ماذا عليه أن يفعل حتى وجد ذراعيها تلتف حوله لتستلقي هي في أحضانه ثم تخبره دون مقدمات:

- كان يوم ميلادي الثامن عشر حين قررت عائلتي بأنني سأتزوج الأسبوع المقبل.. وبالفعل بدأت التجهيزات

اللازمة وتم استقبال التهنئة بكلمات السرور والبهجة، كانت البسمة تعتلي وجهي وأنا أعيش لحظات يوم ميلادي الرائعة، لم أرد أن تتغير ملامح وجهي السعيدة حين سمعتهم يتهامسون بقرار زواجي من أبناء أحد أصدقاء أبي، كنت أعلم أنها البسمة الأخيرة فاحتفظتُ بها إلى أقصى وقت ممكن!

صمتت لثوان تستجمع عقلها ثم تابعت:

- عائلتي لا تعرف ماذا تعني كلمة لا، ماهية الرفض ليست في قاموس حياتهم اللعينة، لم أجد حلًا سوى الهروب، نعم كان يتوجب عليَّ الرحيل والهرب من حياة ستجعلني تعيسة للأبد. ولكن هيهات فلا يسير العالم وفقًا لما خططنا بل دومًا يفاجئنا بعكس كل ما أردنا حدوثه! أمسكَ بي أخي وأنا أحاول الهرب وانهال عليَّ بضربٍ مُبرح لم يَشفى جسدي منه حتى الآن، بل وكسر كل آمالي في الحياة، بدلًا من أن أتكئ على كتفه كنت أتكئ من ثقل كفيه على وجهي. مثل أكياس القمامة كان يسحبني عائدًا بي إلى المنزل، لا يأبه لصراخي ولا لتمزق ملابسي أو حتى لدمائي التي سقطت طيلة الطريق لتسقي الأرض قهرًا، أظنها ستُنتج نباتات ذابلة خالية من الحياة، مثلي تمامًا. ربط قدمي

في أحد أعمدة الحجرة الخاصة بالحديقة ثم اتجه ليخبر باقي العائلة بما حدث، شعور بشع أن تنتظر أن يأتي أحد ليخلصك من هذا العذاب ولكنك على يقين أن من سيأتي سيحطمك أكثر ويقتل كل آمالك.. العالم ليس عادلًا بالمرة يا عزيزي مراد، ولكن يقولون النور دائمًا ما يأتي حتى ولو من تحت أعقاب الباب.. جاءت أختي فجأة من خلف الجميع، فكت الحبال عني، ساعدتني على النهوض، أتحامل عليها للوصول إلى للخارج، ثم ركضتُ، ركضتُ لساعات حتى لم أعد أشعر بقدميّ المتهالكتين، حتى أنني بعد كل مواصلة كنت أنزل وأتابع الركض كالمجنونة!

لاحظ مراد بكاءها، فقطع حديثها قائلا:

- جميلة مثلك، لا تستحق أن ترى قبح هذا العالم.

لتضحك هي ضحكة ممزوجة بالبكاء وترد:

- أصبحتُ قبيحة بقدر ما يناسب العيش هنا، أو ربما كما تراني الآن.. عاهرة في أحضان شاب تعرفه منذ ساعات، أو كما قالت عني أختي لعائلتي بعد رحيلي، عاهرة هربت مع عشيقها!
"كان عليَّ الهرب، لأنني حامل، وعشيقي بانتظاري"

أعطتهم ورقة تحمل هذا الحديث وكأنني تركتها في غرفتي قبل الرحيل! جعلتني قصة البلدة الشهيرة لسنوات.. العاهرة الهاربة بين أحضان عاشقها.. هكذا كانوا يتغنون ويفتكون في سمعتي بعد أن ذهبت، حتى عائلتي لتخفف من أثر الفضيحة أعلنوا وفاتي في حادث سيارة، وقاموا بدفني أيضًا، فقط لأن أختي تكرهني وترغب بالزواج من الشخص الذي كان سيتزوجني، أصبح مماتي ليس في داخلي فقط، بل وعلى الأوراق أيضًا! ظننتُ هذا النور هو بصيص من الأمل ليصدمني بأنه نارًا أحرقت كل شيء، وأحرقت روحي حتى أصبحتُ رمادًا يتطاير هنا وهناك، حاولت تغيير مظهري، لون خصلات شعري، تفكيري، وحياتي، التعرف على أشخاص جدد ولكن في النهاية أصبحت تلك العاهرة التي صدقت عائلتي أنها ابنتهم!
أتعلم ما الذي يدفع شخصًا للانتحار؟
أن يكون ميتًا من الأساس، أظنه سببًا كافيًا للرحيل!

بهدوء وضع قبلة وسط رأسها ثم قال:

- مازلتِ جميلة حتى وإن أصبحتِ ذراتٍ من الرماد، فعندما تتطايرين يفوح عطرك الخالص بلذة المقاومة وعدم الرسوخ لقسوة الواقع، لقد كان فخرًا للعالم أن

يحاول هزيمتك، ولكنك لم ولن تهزمي، لأنك أقوى بكثير من كل هذه الصعاب.

حاول مراد أن يكون لطيفًا حتى وإن قال عكس ما يصدقه، فكلماتك اللطيفة لو كانت سببًا في إنقاذ أحد، فلا تترد بإعطائها.

مالت برأسها نحو وجهه لتتلاقى أنفاسهم الحارة قبل أن تتلاقى شفاههم في قبلة ساخنة أثارت كُلًا منهما، تبعها قبلات أكثر حرارة.. وبهمجية شخص لا يعلم عن الجنس إلا القليل انقض عليها وهو يُعريها من حمالة صدرها لينسدل الستار عن أعينه، ويترك جسده في ليلة مفعمة ببعض الإثارة التي كان يفتقد وجودها في حياته البائسة.

عجيبة هي الحياة التي تجعل عائلة تقتل ابنتهم وهي على قيد الحياة، خشية من نيران الخزي والعار التي قاموا بإشعالها ظلمًا! وعائلة تعطي ابنهم العالم بأكمله ولا يعلمونه كيف يعيش فيه!

فلا شك أن العائلة هي السبب الأول في فساد كل شخص أصبح فاسدًا، فيقولون البذرة الصالحة تنتج أزهارًا زاهية، والبذرة الفاسدة تنتج نباتا عفنا يؤذي من حوله برائحته ويجمع جواره كل الأشياء السيئة!

***

ومهما كانت درجة التعافي فلا يعود المرء مثل السابق..
حتى وإن عاد كُل شيء.

مجهول

الأجواء رائعة.. الجلوس هنا كافٍ لإذابة كل أحزانك في ثوانٍ، سماعة الأذن لن تعيق سماعك لأصوات ارتطام أمواج البحر بالصخور أمامك.. نسمات الهواء ساحرة بقدر أن تصبح دواء لهمومك وآلامك وحتى فقدانك لكل شيء، إن عجزت يومًا عن التنفس فلا تتردد بالمجيء إلى هنا.. إلى الإسكندرية.

- فيمَ أنتِ شاردة؟

عاد سؤاله مرة أخرى، حتى انتبهت لحديثه وأجابته بلهجة هادئة:

- أنا أعشق هذا المكان، هُنا يسترد قلبي بريقه، وأستعيد جزءًا مفقودًا بداخلي، أنا بكلِ الأماكن غريبة، ولا أنتمي إلا لعزيزتي مدينة الإسكندرية.

وحدها تجعلني أكتمل!

- بالطبع للإسكندرية سحر خاص في قلوب الجميع.

قالها مع ابتسامة بسيطة ثم سأل مجددًا:

- ومع ذلك لم لا أراكِ سعيدة؟ عيناكِ باهتتين، وابتسامتك منطفئة.
- أتعلم، لا تنتهي الحياة حين نقرر ذلك، حتى وإن حاربنا لإنهائها، تنتهي بخروج بعض الأشخاص منها، بفقدان بعض الأشياء التي كانت تعطيها قيمة كافية للعيش بكل سرور، أنا لم أمت ولكن لا يعني ذلك أنني على قيد الحياة، أتفهمني؟ لا أحتاج لأي شيء سوى السلام، السلام فقط والابتعاد عن الماضي بكل خيباته وهزائمه، لذلك جئنا إلى هُنا، ومعك أنت وجدت ضالتي في وجود السلام الذي أبحث عنه، والأمان الذي وجدته في صديق مخلص مثلك.
- صديق مخلص فقط!

قالها بنبرة يائسة، ثم تابع بعد دقائق عندما لم يأتيه رد منها:

- أعلم أنني عاهدتك ألا أُخرب هذا الأمان، وأن نصبح أصدقاء للأبد، لا تخشي فقداني طيلة الوقت، ولا أرتعب من فكرة رحيلك عني. ولكن..

صمت لثوان أخذ فيهم نفسًا عميقًا ثم قال:

- أحببتُكِ..

مُراد

ابتلع ألمك، ولا تنتظر شفقات أحد!

لطالما يأسرني ذلك الهدوء الذي يأتي بعد منتصف الليل، وسط الشوارع الفارغة ونسمات الهواء اللاسعة.. إنه لعالم آخر بالنسبة لي، جميع المنازل هادئة، مغلقة النوافذ والأبواب، الكل مختبئ تحت الغطاء تنهال عليه ذكريات وذكريات أغلبها مؤلمة ومخيبة للآمال.

قسوة الشتاء ليست في برودته القارسة، أو أمطاره الغزيرة، إنما فقط لأنه يكشف حقيقة أنك وحيد، وحيد تمامًا بلا أحد..

- بماذا أنت شارد هكذا؟

قالتها شمس لتقتل الصمت بيننا.

- كيف يتحول كل هذا الهدوء إلى صخب مزعج في الصباح، البشر يفسدون روحانيات الطبيعة في الحياة.. لو توقفت حركات البشر ليوم واحد فقط، تخيلي معي يوم كامل تمتلكين فيه العالم بأكمله وحدكِ!

تابعتُ النظر نحو أبعد نقطة من النور أمامي، ربما هو منزل لعائلة صغيرة يملؤه صراخ رضيع، تركض والدته لتحضير كوب من اللبن الدافئ لينعم بنوم سالم!

وربما عامل كادح يعمل ليلا نهارًا..

رُبما أي شخص ولكن حتمًا ليس تعيسًا من ترك أضوائه تملأ المكان في هذا الوقت المتأخر من الليل، فنحن التعساء نعشق الظلام الدامس الذي يبتلعنا، ولكن نختبئ بداخله أيضًا لننهار كل يوم دون أن يلحظ أحد، دون أن نخجل من فك وثاق ضعفنا أمامه، ربما نرضى بالانهيار ولكن نرفض تمامًا إظهاره أمام أحد.. نرفض تمامًا النظر إلينا بشيء من الشفقة!

أنهيت حديثي ثم وجدت أني أرغب بإلقاء بعض الكلمات فتابعت:

- أحيانا أتعجب كيف كان العالم قبل أن يجدوا الكافيين بكل أشكاله؟ كيف تخطوا الصعاب دون الاستعانة بصديق مثل النيكوتين؟ أشفق عليهم لخسارتهم متعة الاستمتاع بالثلاثية الأفضل في التاريخ، وهي السمفونية التي تكتب على قلب حبات البُن، وتعزف على لفائف التبغ! لقد خسرتم الكثير حقًا، مزيج لا يمكن وصفه،

ليس شيئًا يخرجك من حزنك، وإنما يشاركك إياه في صمتٍ تام، وما أندر مشاركتك لشيء في هذا العالم!

أشعلت شمس سيجارة، وسحبت بعض الدخان منها ثم ناولتني إياها وهي تتحدث:

- هون عليك يا صديقي، عقلك لن يتحمل كل هذا الحديث!

ابتسمتُ وأنا أبدي إعجابي الشديد بهذا المكان، كيف لا أضيع في تفكير لساعات وأنا على أعلى أسطح المدينة، بصحبة فتاة تربت على كتفي، ولساقينا حرية الحركة في هذا الهواء الطلق، جالسين على الحافة لا يخشى أحدنا السقوط رغم المسافة الهائلة بيننا وبين تلك السيارة القابعة بالأسفل، كلما رمقتها بعيني أشعر برأسي يرتطم بها!

- لم تخبرنا بما يدفع شخصًا للانتحار.. أتود أن تُخبرني الأن؟

تنهدتُ قليلًا ثم حاولت استحضار الكلمات المناسبة لهذا النص الذي سأُلقيه عليها، ثم شرعت في الحديث:

- ليس سببًا واحدًا يدفعنا للانتحار.. سأشرح لكِ حين يخذلنا أقرب الأحباء، نفقد الثقة بأنفسنا ويقتُلنا التفكير الدائم ومأساة أننا لم نكن نستحق وجودهم، نؤمن تمامًا بأنهم ملائكة وتحتم عليهم المغادرة لأننا الأباليس، وهذا سبب كاف لاستحالة لقائنا.. ومع تكرار الخذلان تتوالى الخيبات إلى أن نفقد شغفنا في معرفة شخص واحد جديد، بل ونحاول جاهدين هدم ما تبقى من علاقاتنا مع الجميع! تعيسة هي تلك اللحظات التي تختار فيها العزلة وأنت مقتنع تمامًا أن وحدتك هي الحل، اللعنة على الوحدة، التي تعلمك أن تصبح شخصًا كتومًا لا ينتظر أحدا، لا ينهار مع رحيل أي شخص مهما كان عزيزًا.. يستمتع بتفاصيله البسيطة ويشاركها نفسه، حتى يمكنني الآن السير لساعات وحدي، الجلوس بالمقهى وحدي، أو حتى السفر لأيام وشهور وأنا بلا أحد.. فالحياة تجبرنا أحيانًا على البقاء بلا أي أحد.. وبطبيعة الحال ستتحدث إلى أحدهم، فلن تجد إلا نفسك، هل جنون أن تحدث نفسك وتروي لها قصصك الحزينة؟ بل وتنتظر ردًا أيضًا، وهنا يحدث الخلل الذي يقودك مع الوقت إلى الهاوية. ترى هل كانت رحلة قصيرة نحو الهاوية؟ أم حربًا كُللت بالهزائم وشيدت بقلاع هشة تساقطت من قسوة أن يكون المرء

مهزومًا ووحيدًا تمامًا.. تتعرض للخذلان من أكثر الأشخاص محبة لقلبك، تفقد شغفك تجاه كل شيء، تعتزل البشر والحياة وأنت مؤمن بأن هذا هو الصواب، ثم تعتنق الوحدة، وتصبح مريضًا نفسيًا بالنهاية يسير محدثًا نفسه بكل الأذى الذي أصابه، ثم تصل إلى حالة من الفتور.. تتمنى العودة لحياتك العادية وكما كُنت في السابق ولكن تفشل، تفشل كثيرًا حتى يدفعك اليأس من على حافة الهاوية، هذا ما يدفعنا للانتحار.. أو هذا ما أظنه.. شخص خاض حربًا ضد كل هذه الآلام وحده تمامًا ليس ضعيفًا أو فاقدًا للأمل، أنت فقط لست مكانه ولا تتمنى أن تصبح في مكانه يومًا ما.

شعرتُ بيديها الدافئة تربت على وجهي البارد لأنعم بدفء الحياة قليلًا، ثم قالت بنبرة يائسة بعض الشيء:

- أتعلم، كان بمقدرتي الرحيل عن هذا العالم وكل هذا القبح منذ وقت طويل، ولكن فشلت محاولتي الأولى وتحطمت أغلب عظام جسدي وبقيت أتألم لساعات أسفل هذا الكوبري اللعين الذي على مرمى بصرك من ناحية اليسار، لساعات طويلة عاجزة عن الحراك، وبأعجوبة تمكنت من الزحف لأختبئ في مكان ما بعيدًا عن نظرات الوحوش البشرية، مر بعض الوقت حتى

وجدني أحدهم، ثم أحضر أصدقاءه لينهالوا على جسدي المحطم ويمزقوا شرفي، لم يبال أحد بصراخي من ألم الكسر بجسدي، أو ألم فقدان آخر شيء أمتلكه بالحياة، لم يبال أي أحد بكوني إنسانة حتى! وكأنني دمية هامدة يعبثون بها كالحيوانات، لم أعلم لماذا لم أمت حينها.. لم أدع بأي شيء سوى أن تنتهي الحياة في هذه اللحظة ويلقوا بجثتي في النهر لتتطهر بعد أن لوثوها، ولكن لم يحدث واستطعت الهرب من تحت أيديهم، يومًا ما كانوا يتعاركون.. فقتل أحدهم الآخر وهرب الباقي. لأنجو.. دعنا لا نقول عنها نجاة، ربما ليس سوى هدنة مع الحياة! تكاتف يومها البشر والعالم وحتى نفسي، لقتلي.

فلماذا لم أذهب وينتهي كل شيء؟

ومن بعدها وأنا لم أعد على قيد الحياة، أعيش تحت مبدأ مريع قد اخترعه أسوأ البشر.

"إن لم تسطع مقاومة الاغتصاب، استمتع به!"

ولكن هنا اغتصبتني الحياة.. لتفقدني قيمة حياتي وأحلامي وكل شيء كان جميلًا، ولو رحلت الآن سأذهب لقاع الجحيم، أنا لم أنعم براحة الدنيا.. وسألقى شقاء الجحيم، أيُ سوء يمكن أن يُصيبني بعد ذلك!

تعلمت بالطريقة القاسية أنه لن تعطيك الحياة بقدر ما ستأخذ منك، وربما تسلب منك كل ما تستحق، حتى وإن كان لك! فهذا ما تعلمته ورأيته.
ولأن الحياة ليست مكانًا عادلًا، لم أسع لتحقيق العدل يومًا، بقدر ما سعيت لإنهاء مرارة الظلم في أسرع وقت وبأخف الطرق صعوبة!

احتنضتها لتسقط دمعاتها على معطفي وأنا أحاول تهدئتها، نعم هو ذلك الحضن الذي ترغب بأن تمنحه لكل شخص ينهار من فرط الألم، وأنت لست قادرًا على فعل شيء له أكثر من أن تحتضنه، وهذا حل ليس سيئا. فقط عانقه!

مرت الدقائق التالية في سلام وربما بقينا لساعة أو أكثر في لحظات حميمة حتى أفسد صوت ذلك الانفجار الذي اخترق مسامعنا كل شيء، وشوش الدخان رؤية تلك النقاط البعيدة من الضوء، لقد اندلع حريق بالأسفل وها هي نيرانه تسارعت في الظهور إلينا، فنهضنا مسرعين قبل أن يسقط كلانا للأسفل، ركضنا نحو مصدر الضجيج على درجات السلم الرخامي لنجد منبع الدخان من باب منزل فريد!

ثوانٍ حتى احترق الباب تمامًا وسقط أمامنا، يتآكل من النيران التي ظلت تقترب نحونا.. وسط صراخ شمس المتتالي وصوت

اللهيب الذي يخترق أذني ويلمع في عيني.. كُنت خائفًا وهذا شعور افتقدته منذ فترة طويلة!

- لا تذهبوا، لا تموتوا..

تكررها شمس بصوت متحشرج من البكاء بجانبي، بينما أحاول إيجاد طريقة للدخول ومحاولة إنقاذهم. حتى سقطنا للأسفل على السلالم مع صوت الانفجار الثاني وتشوشت الأرجاء بالكامل وكأنها النهاية التي نبحث جميعًا عنها!

***

مجهول

- ولكن أحببتُكِ!

لم أبد رد فعل مناسب لكلمته التي قالها في توتر وبعض الخوف من ردي التالي، حاولت جاهدة ألا أحطم قلبه ولكن خانني لساني حين تكلمت:

- يا عزيزي لقد أصبحتُ شخصًا فارغًا، ليس لدي ما أعطيه لكَ، ولا أهتم بما ستعطيني إياه، فلو كُنت أملك من الود واللين رصيدًا زائدًا لما بخلت عليك به، لن أعطيك شيئًا في حين أنني سأنتظر منك كل شيء! فنحن كنغمة موسيقية مهما حاولت تلحينها، لن تعزف بالنهاية. لن أتقدم خطوة واحدة نحو ألم جديد ولو كلفني ذلك موتي..
- أنتِ تتألمين من الأساس! ماذا قد تخسرين أكثر مما خسرتِ!

قالها وهو يرتجف وكأنه يفقد آخر آماله في النجاة.

ثم أكمل:

- أنا أيضًا أتألم، لا أطالبك سوى بمشاركة تلك الآلام بيننا، وإن توجب الرحيل يومًا، لنرحل معًا! شخص يعيش معك كل أوجاعك دون أن يمل، هي فرصة مثالية لحياة تعيسة أفضل!

سحبت يدي من بين قبضته قائلة:

- عشتُ وحيدة بالقدر الذي يجعلني أكتفي بنفسي، ولا أتكئ على كتف أحد، أتنازل عن كل شيء في سبيل راحتي، عشتُ وحيدة بقدر ما أصبح البشر رفاهية زائدة على حياتي! رجاء لا تفسد صداقتنا لأنك تقودنا نحو نهايتها، رجاء لا تفعل.
- ولكنك لستِ بخير، ولا أجدك سعيدة، تسقطين أمام عيني ولن أتركك وحدك وسط كل هذا الخراب!

ابتسمتُ له ثم تحدثت:

- أنا بخير، ولو رأيتني على مشارف السقوط من الهاوية، ووجدت روحي تحترق من الحزن، بل وإن عشتُ وحيدة للأبد وفقدت كل ما أملك سأخبرك حينها أيضًا

أنني بخير، فلا الخذلان أصبح يؤلمني، ولم أعد أخلق شغفًا حتى أفقده.. لا تقلق أنا دائمًا بخير.

- ومع ذلك أنا هنا دومًا، وسأنتظرك.

***

لا أؤمن بالحبٍ من أول نظرة، تعَال وشاهد طباعي السيئة أولًا.. تحمل مزاجيتي وأنا أخبرك أنني في أفضل أحوالي ثم أتدهور في دقائق هاربًا من أمامك.. تعلم ألا تُعاتبني إن اختفيت فجأة معتزلا كل شيء.. لا تنبهر بي ثم تمل وترحل، فداخلي لا يشبه كثيرًا ما تراه مني، جرب أن تُعاني معي ثم تعال وأخبرني بصدق حبك. فقط حينها سأحبك كثيرًا.

وحتى النهاية..

مُراد

النيران حولنا تأكل كل شيء!

اللعنة على المصائب حين تأتي دفعة واحدة، الرؤية أصبحت شبه معدومة، ولكن صوت اللهيب الممزوج بصراخ شمس كان يخترق أذني. فكيف سأنقذهم؟

هل أترك زمام الأمور للقدر حتى ينتهي كل شيء الآن!

قبل ساعة..

كان لك معايا..

أجمل حكاية، في العمر كله!

تردد هذا المقطع على مسامعنا ليؤنس سهرتنا، بحثنا كثيرًا عن النافذة التي يأتي منها الصوت ولكن بلا جدوى..

لم تمض دقائق حتى بدأت موسيقى أعرفها جيدًا باقتحام آذاننا، هي موسيقى البداية لأحد قصائد الدرويش "عمرو حسن"،

فابتسمت لشمس لتبادلني نفس الابتسامة فعلمت أن كلانا عاشقين لتلك القصيدة.

وحشتيني..

ولو كل اللي عارفينك

قالولك

إني منفعكيش..

ولو كل اللي عارفني

قالولي

بكره تنسيني..

وحشتيني!

كنا نردد سويًا أغلب أبيات القصيدة في متعة نادرًا ما تُصيبني، وبعد انتهائها مباشرة باغتها بسؤال مفاجئ:

- كيف تعرفتم على بعض؟

ثم أردفت:

- أقصد أنتِ وفريد، وسليم.

رفعت إحدى حاجبيها وهي ترد:

- أرى بعض الغيرة في عينيك!

قالتها ثم ضحكت ساخرة مني، لأرد:

- أيُ غيرة! نحن فقط نتبادل الحديث.
- اعترف، لن أخبرك حتى تعترف بغيرتك..

ابتسمتُ لها قائلًا:

- حسنًا لا أريد معرفة شيء.

تحدثت هكذا متوقعًا أن تخبرني بكل شيء ولكن فاجأتني حين لم تُعرني انتباها وأكملت الدندنة مع الأغاني، مضى بعض الوقت وأنا أحاول ألا أتخلى عن فكرة عدم غيرتي، ولكنها شرعت في الحديث فجأة قائلة:

- أمزح معك، كيف تغير على شخص مثلي من الأساس..

وجدتها تمسح عينيها والابتسامة لم تهتز من على وجهها، حتى فشلت محاولتها في إخفاء هذا الانهيار الآتي.

أنين بكائها كان يمزقني من الداخل، حشرجة صوتها الخافت وهي تحاول إقناعي بكونها في أفضل حال!

ولأول مرة أشعر بشيء يحزن قلبي منذ أخر خذلان من الحياة، والذي ظننته الأخير..

- شخص واحد مثلي.. يُشبهني حين أصبح غريبة عن نفسي، يجدني حين أضيع وأختفي بين متاهات الحياة، يُحبني في الوقت الذي أكون فيه كارهة لنفسي، شخص واحد بجواري كان كافيًا لإنقاذي!

قالتها وهي تحاول لم شتات روحها قبل أن تتبعثر تمامًا.

ثم أكملت:

- أتعلم، حتى وإن جاء، فقد تأخر كثيرًا إلى أن أصبح وجوده مثل عدمه، اعتدت على هذا الألم، حقًّا أخاف من السعادة! أنا أعلم جيدًا كيف أتألم، أُتقن الصمت، وأجيد الرحيل في أي لحظة، أنعزل تمامًا مستمتعة بالوحدة، حتى وإن دامت لأطول فترة ممكنة.. في الحقيقة أنا أعلم كيف عليَّ أن أحزن ولكن أجهل كيف تكون السعادة! ألا يقولون الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه؟ لهذا أخاف من السعادة يا مُراد.

بهدوء قد وضعت قبلة على منتصف جبينها دون أن أتحدث، هي لا تحتاج حديثي الآن قدر ما تحتاج أن تطمئن، لن أخطئ نفس الخطأ مرتين!

لتكمل حديثها وهي بين أحضاني:

- بعد أن استطعت الهرب من بين أيدي هؤلاء الأوغاد، أمضيت ليلة هي الأسوأ في حياتي، انتفخت عيناي من كثرة البكاء، أرتجف برعب كلما رنت خطوات سائر بالجوار، ساعات وأنا أختبئ في مكان مظلم حتى لا يجدني أحد، مؤسف أن تكون في أمس الحاجة لوجود أحد بجانبك ثم تختبئ خائفًا من أن يجدك! حتى وجدت سليم يجلس مواجهًا للنيل وعلى مقربة مني، لم يرني ولكني تابعته بحذر وخوف وكأنه سيأتي ليأخذ دوره في بعثرة فتات روحي.. مرت ساعة بعد الأخرى وأنا أراقبه حتى بدأت الشمس التي اختبأت خلف الغيوم بإنارة الحياة، كيف تشرق كل يوم وأنا لم أشرق مرة واحدة منذ زمن!

قالتها بسخرية ثم تابعت بعد أن هزت رأسها في حسرة:

كانت ليلة شتوية قاسية لم تسلم من غزارة الأمطار والرعد الذي كان يؤازرني الصراخ من الألم.

الألم كان يفتك بجسدي حتى اعتقدت أنني أتلاشى وأنتهي، ولكن وجدني سليم ليلتها أثناء رحيله ليعطيني القدر فرصة ثانية للبقاء على قيد الحياة.. حينها لم أستطع سوى أن أضع كل آمالي للنجاة في شخص لا أعرفه!

لحظة قاسية التي تُجبر فيها على الوثوق بشخص وأنت تجهل إن كان سيؤذيك أم سيساعدك.

مسحت عينيها بعد أن أزالت رأسها من على صدري لتبتسم وتكمل حديثها:

- ومن هنا قد تعرفنا، وللمرة الأولى لم يخذلني أحد! كان المجهول أرحم بي من كل هؤلاء الذي يسمون معارفي، أنا ممتنة كثيراً لسليم فهو من انتشلني من أسفل القاع لأبقى في القاع مع البائسين، والمهمشين مثلنا.. وليس مع الموتى.

- ما الذي حل به ليصبح بهذا الشكل؟

رددت بهذه الجملة بعد أن أنهت حديثها.

عبثت بأناملها وسط خصلات شعرها الملفوف كالاسباجيتي، أغمضت عينها اليسرى في محاولة ناجحة لتذكر قصة سليم، حتى صاحت قائلة:

- تذكرت..

ثم تابعت:

- مع الأسف فَقد عائلته بأكملها في حادث سير أليم، لم ينج من السيارة يومها أحد سواه، تخيل أن تذهب لمناسبة مع عائلتك بكل سلام لتمضي ليلة سعيدة، ثم تستيقظ فتجد أنك أصبحت وحيدًا، لم يضع القدر اعتبارًا لصغر سنه حتى يتحمل كل هذه المأساة وحده، لم أتعجب حين ألقى به القدر أمامي لإنقاذي وفي الحقيقة كنت أنا منقذته أيضًا، وكأن جميع التعساء يسيرون في متاهة واحدة وبنهايتها أثر لتعيس آخر مثلهم، نحنُ المهمشون نجد بعضنا حتى وإن لم نتقابل، مثلك تمامًا يا مراد، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وأنت جالس في المقهى علمت أنك تشبهنا كثيرًا، وثقت بك أكثر مما أثق بنفسي، لا تندهش فأنا أثق كثيرًا بكل المنهزمين في هذا العالم، فهم يتحملون أوجاعًا بقدر ما يجعلهم عاجزين حتى عن إحزان غيرهم، وحدهم يدركون مرارة الكلمات القاسية فلا يلقونها علي أحد.. وحدهم أدركوا قيمة الصمت حين يصبح الكلام بلا أي فائدة!

صمتت ثوان لتتذكر شيئا تكمل به حديثها الذي طال:

- أخبرني أيضًا أنه في فترة بقائه عاجزًا في المشفى، كانت تجاوره فتاة في الغرفة المقابلة، مر الوقت بينهما حتى أصبحا أصدقاء وهي من سَاعدته على تخطّي كل الألم الذي أصابه في بداية الأمر، ولكن رحلت بالنهاية مثل كل شيء جميل لا يعيبه سوى الرحيل.

رغبت كثيرًا أن أبدي حزني عليه ولكني منطفئ لم أعد أشعر بشيء يحزنني، لأتحدث بهدوء بعد أن أشعلتُ سيجارة جديدة بصعوبة فقد أطفأ الهواء نيران القداحة لمرات عديدة:

- وفريد؟

ردت ببعض اللامبالاة قائلة:

- صديق قديم لسليم كان يسير بسيارته ليلتها ووجدنا، صدفة إلهية غير مرتبة، تستحق حقًا أن توثق تلك الليلة في تاريخ كُل البائسين!

تعالت أصوات الموسيقى مرة أخرى لندندن بهدوء ثم فتحت الحديث مرة أخرى قائلًا:

- وما طبيعة العلاقة بينك وبين فريد؟ أقصد حديثه عن إيذائه للبعض!

- عادية، نحاول جاهدين إصلاح مفاهيم الحياة لديه، لا أنكر استغلالنا لأمواله ونفوذه في الحياة، وهو موقن تمامًا لذلك ولا يمانع أن يشاركنا نقوده وليس مقابلًا لمساعدتنا له، فنحن أصبحنا أصدقاء، نحيا ثلاثتنا وكل منا يقدم ما بحوزته للآخر لنحيا فقط! في الفترة الأخيرة سقطت عائلته في بعض المشاكل مع عائلات أخرى، وحوش تتصادم ولا يهتمون بالذين تحت أقدامهم ما إن تم دعسهم أو حتى رحلوا من الأساس، وهذا لأنهم بلا أي قيمة! أظنه أخبرني أن بعض العصابات أشباه المافيا هما أعداء لعائلته الآن وربما هي نهايتهم..
- وهذا يعني أن فريد أيضًا معرض للأذى!

الآن..

- النيران قد أكلت كل شيء يا شمس، لا نستطيع إنقاذهم!

صرخت في وجهي وهي تركض بهرولة نحو باب الشقة المزين بالنيران..

لأسحبها بقوة دون أن أُبالي لصراخها، عائدين إلى السطح مرة أخرى دافعًا إياها للداخل ثم قلت صائحًا:

- حاولي إيجاد المساعدة وأنا سأحاول إيجاد حل بالأسفل.

تركتها ونزلت بعد أن أغلقت عليها الباب العلوي.

ماذا سأفعل الآن، أنا.. عليَّ إنقاذهم، حسنًا سأدلف الآن و..

لا أستطيع!

***

الكاتب

شخصيات فاشلة لا يعتمد عليهم.. والآن يتمرد عليَّ لإنهائي المشهد دون أن أجعله بطلًا!

وهو أحمق من الأساس يجهل كيف تنطفئ النيران، أرهقتني حياتك التعيسة واستنفذت كل طاقتي لأعاني معك في كل هذا، سأضع إطارًا لحياتك الآن ولك مطلق الحرية بفعل ما تشاء.

ولكن الدخان الأسود بالداخل سيخنقك في ثوان إن دلفت الآن، لا تتجمد هكذا، انظر أسفلك لتجد مطفأة النيران المعلقة على أحد جوانب السلم، جيد أحضرها الآن وأنه كل هذه الضجة لنختم ذلك المشهد، اللعنة على من جعلك بطلًا لهذه الرواية يا مراد.

لن أخبر أحدا بخيبتك في الضغط على مكبس المطفأة واندفاع دخانها الأبيض في وجهك كالأبله، فلا أريد هز هيبتك أمامهم، فسأخبرهم عن دخولك بشجاعة مشبعًا الدخان الأسود بالأبيض، لتجد سليم وفريد مازالا نائمين في ثبات ولكن بالتأكيد اختنقوا من كم دخان الحريق.

ليركض مراد لأعلى ويفتح الباب لتخرج شمس وهي تسبه وتلعنه لإغلاقه عليه.. فصرخ بوجهها قائلًا:

- اصمتي الآن، تعالي وساعديني في نقلهم لأسفل، باستطاعتك قيادة السيارة؟

ترتعش يديها خلف جسدها المرتجف وترد قائلة:

- نعم أستطيع..

***

مجهول

- إلى صديقي الوحيد، يؤسفني الرحيل ولكني مجبرة، سيفسد الحب الذي في قلبك تجاهي صداقتنا، ثم حياتنا، وسيجعلك تكرهني يومًا مًا، لا أرغب في تحطيم قلبك، فهو محطم بما فيه الكفاية وأنا كذلك. الحل الأسلم لكلينا هو أن نفترق قبل حتى أن نجتمع، لن تراني مجددًا.. اعتنِ بنفسك جيدًا يا عزيزي، وإياك وانتظار عودتي لأن الانتظار سيحطمك أكثر.. يعز على قلبي أن أتركك، ولكن لا أستطيع البقاء.. أتمنى أن أكون خذلانك الأخير. سامحني..

حاولت جاهدة كتابة هذه الرسالة بعناية دون أن تفسدها قطرات دموعي التي انهالت رغمًا عني، وفي ظرف أنيق كانت تسكن كلماتي داخل حقيبة ظهره، لأرحل بعدها وأنا لا أعلم لمن أو إلى أين سأذهب، رغبة الرحيل تسحبني دومًا.. ساعدني يا الله فلا أجد مكانا لي سوى جوارك.

انتصارك على شخصك المفضل ما هو إلا خسارة مؤسفة..
وكأنكَ تصل إلى ما تحب فاقدًا بالمقابل من تحب!

الكاتب

افعل ما شئت، دون أن تؤذي أحدا في قلبه!

للراحلين عنا رونق خاص، مهما حملنا من الحقد داخل قلوبنا تجاههم، تأتي دائمًا لحظة في منتصف حزنك تتمنى بها لو كان أحدهم موجودًا الآن، مهما كانت الخلافات والصراعات والأشياء التي أدت بكم إلى كل هذا، لا يمكنك إنكار اشتياقك ولو لبضع ثوان، فهي لحظة صادقة للغاية.

مُراد لم يهنأ بليلة سعيدة حتى النهاية، فكعادة كل جميل لا يكتمل هكذا عودتنا الحياة.

مر أسبوع على تلك الحادثة الأليمة على حياتهم، تعافى فريد وسليم من السعال الذي صاحبهم لعدة ليال، فقد صمدت رئتيهما بأعجوبة أثناء الحريق إثر الانفجار الذي تسبب به أعداء عائلة فريد، توطدت العلاقة كثيرًا بين الجميع بعد تلك الحادثة، فلولا مراد لكان الجميع في قاع الجحيم الآن..

- هل نحتفل بشفائكم يا شباب.

قالتها شمس مع ابتسامة ساخرة منهم، ليأتيها الرد بوسادة الأريكة في وجهها من فريد الذي ألقاها ثم تحدث:

- نتنفس بصعوبة أيتها الحقيرة، لا تدخني السجائر حتى إكتمال شفائنا.

قالها مازحًا هو الآخر.

وعلى غير العادة تحدث سليم في شرود واضح:

- رأيتُ عائلتي في المشفى، يقفون أمامي بثيابهم البيضاء والنور الأبيض يلمع على وجوههم، يمدون لي يدهم في محاولة لإنقاذي من هذه الحياة، تعمدت أن أسعل أكثر لعلَ رئتي تتمزق وينتهي الأمر، ولكن لم يحدث! اشتقتُ كثيرًا لهم، ولمن رحلت عني، في الحقيقة أنا لستُ ممتنًا لكَ يا مُراد على إنقاذي، يا ليتك تركت زمام الأمور للموت الذي أبحث عنه! لأنني لم أعد أحتمل انتظاره مرة أخرى، شعور مريع أن تنتظر الموت لتأكدك بإنه ربما يكون سبيلك الوحيد للنجاة!

لم يحزن مراد من حديثه بل وأشار برأسه مواسيًا سليم بملامح حزينة معتاد عليها، فلا يوجد شيء يقدمه له إلا المواساة!

بينما نهضت شمس لتجلس بجوار سليم على الأريكة التي احترقت أغلب أطرافها، تبعثر بأناملها خصلات شعره ثم تحتضنه لتخفي بكائه عن الجالسين، فكانت علاقتها مع سليم تحرك بداخلها مشاعر الأمومة التي تيقن بداخلها صعوبة الحصول عليها، فارق السن بينهما ليس بالكثير ولكن هذه الحياة، أحيانًا تعطينا ما لا نملك لتواسينا ببعض البشر اللطفاء.

لم يعقب فريد وأكمل متابعة تصفح هاتفه ليقرأ أخبار عائلته ومشاكلها الجديدة، ونهض مراد يدخن سيجارة أمام النافذة.

"لا تضع وقودًا زائدًا إن كنت لن تكمل الرحلة، اترك فرصة لغيرك"

هي كلمات كُتبت على لوحة معلقة بأحد الأعمدة على الطريق السريع للإسكندرية، مرت لثوان من أمام أعينهم..

تعالت أصواتهم وهم يدندنون مع الأغاني الحماسية، يقود فريد بسرعة جنونية متجهًا إلى عروس البحر المتوسط، بينما يستمتع البقية بأجواء السفر والغناء طوال طريق، حتى جاء موعد الدخول من بوابة المدينة.

أشار مُراد لفريد بأن يلقي سيجارته المعبأة بالحشيش ولكن سخر فريد منه ضاحكًا ودلف وهو ينفث دخانه في وجوههم، كاد أن يحدثه أحد العاملين ولكن أوقفه الضابط عندما أزاح فريد نظارته الشمسية ورآه الجميع بوضوح، ثم ألقى الضابط التحية قائلًا:

- صباح الخير يا فريد بيه، رحلة ممتعة.

نعم صديقي إنها رفاهية السلطة!

سليم لا يهتم بكل تلك التفاصيل، هو جالس بمقعده يسند رأسه على الزجاج الجانبي لنافذة السيارة متابعًا الطريق منذ بدايته، أجد حقًا متعة السفر في متابعة الطريق بكل تفاصيله من النافذة واصطدام الهواء بوجهك حتى يُسقط عنك أحزانك قليلًا، وبالطبع سماعة الأذن هي الأهم هنا.

وعلى الجانب الآخر دفعته شمس في كتفه قائلة:

- ماذا بك، أراك أنتَ أيضًا شاردًا منذ أن تحركنا!
- أنا بخير، لا تقلقي.

قالها مراد ثم أبعد وجهه ناظرًا إلى الطريق مرة أخرى لينهي الحديث قبل أن يبدأ، فصمتت بعد أن ربتت على كتفه في

انتظار أن يخرج ما بداخله من حديث، ولكن يجب أن يشعر بأنه يريد ذلك أولًا لذلك انتظرته.

إنها لصفة بالغة في الجمال أن تكون شخصًا يعرف كيف يمتص الحزن، يشاركك إياه ولا يجعلك تشعر بأنك مجبر على الحديث معه، يطمئنك بوجوده الدائم حتى وأنت في أسوأ حالاتك!

وصلوا بسلام أخيرًا على أرضهم المفضلة، فلكل منهم ذكريات هنا، فيما عدا شمس، فهي الزيارة الأولى لها على ساحة الذكريات.. متحمسة لرؤية أرض العشاق والمحطمين قلوبهم، ومع ذلك لم تركض هنا وهناك بسخافة فتاة مراهقة، فقط ابتسمت بهدوء وهي تنظر حولها في سعادة.

اتجهوا للفندق الذي حجز فيه فريد لهم، مقابل للبحر في جناح خاص، تكفل فريد بمصاريف كل شيء فهو صاحب فكرة السفر بعد أن مضى وقت طويل لهم في التعافي من أثر الحادثة.

انغمس كل شخص في ترتيب حقائبه داخل الغرفة، ثم الاسترخاء قليلًا من تعب السفر بينما تركهم مُراد متجهًا لأسفل. ليجد روحه تنجذب إلى ساحل البحر بالطريق المقابل.

كانت ستسحقه سيارة في غفلة منه ولكن أنقذه القدر ليخبره بأنه لم ينته بعد منه، يقف بعدها مُراد باسطًا ذراعيه لليمين

واليسار، ينظر بوجهه لأعلى وهو يستنشق الهواء، يضربه مشهد إيلين وهي تبسط ذراعيها، فيفتح عينه سريعًا قائلًا:

- مرحبًا عزيزتي، اشتقتُ كثيرًا.

السيرُ هنا لهُ متعة خاصة من نوعها، مهما كنت محملًا بالهموم فستجدها تتساقط منك رويدًا رويدًا مع كل خطوة، برفقتك كوب من القهوة وبعض السجائر، واستمتع برحلتك!

يتذكر لقائه بالأمس مع سمر الذي ما زال يدور في ذاكرته بسبب كلماتها التي كانت قاسية.

قبل ليلة..

- أين اختفيت كل تلك الأسابيع!
- لقد كانت..

قاطعته قائلة:

- لا أريد المعرفة، أردت فقط أن أخبرك أنني أصبحت على يقين أن ليس كل من قام بالانتحار فاقدا لإيمانه أو كما يدعوه البعض كافرًا.
- وما الذي جعلك متأكدة الآن!

تنهدت ثم استعدت جيدًا لتلقي الكلمات، ثم قالت:

- في الأسابيع الماضية تحدثت مع الكثير من الأطباء النفسيين، والمرضى أيضًا، مع الشيوخ والفلاسفة، قرأتُ العديد من المقالات حول حقيقة التفريط بروحك، ثم بالنهاية أدركت أن كل هذا لن يُفيد بشيء، من رحل قد رحل، ولن يعود مجددًا مهما حدث!

من رحل لا يهتم بأحاديث البشر بعده، وإنما البشر يخافون كثيرًا من حديث الراحلين للإله عنهم.

شردتْ لدقيقة ثم تابعت:

- مرض الاكتئاب الذي استهان بألمه الجميع وأصبح شيئًا عاديًا نَصف به كل من أصابه بعض الحزن، الاكتئاب الذي يجعل شخصًا ناضجًا سويًا يصل إلى درجة الجنون حين يفقد عقله، قاسية للغاية هي الأمراض النفسية التي يخجل حتى الكثير من الاعتراف بها، بل ويقولون عنها ضعف لا يستحق حتى أن يستمع له!
كيف يُحاسب شخص كان فاقدًا لعقله؟
الأمر معقد بشكل لا يُصدق. ولكن الأهم من كل هذا والذي أردت أن أُخبرك به هو أننا أصغر وأضعف بكثير من أن نحدد من رحل كافرًا بالله، ومن رحل مؤمنًا به..

من نحنُ حتى نلقي أحكامًا على غيرنا! الله وحده يعلم كل شيء.

أنهت حديثها وسريعًا قد ارتدت حقيبتها وبدأت تتحرك راحلة عنه دون حتى أن تودعه.. ثم قالت وهي على مسافة ليست بالقريبة ولا البعيدة وإنما كافية ليستمع لها:

- لا تناقش، لا تجادل، لن نتقابل حتى مرة أخرى.. انتبه جيدًا على نفسك، وحافظ جيدًا على روحك لأن الرحيل مؤلم، مؤلم بشكل لا يطاق.

ثم رحلت وهو يتابعها عاجزًا حتى عن أن يتحدث.

- جميلة هي مدينة الأسكندرية..

قطعت تفكيره في ليلة أمس بجملتها المفاجئة، ليجد شمس واقفة خلفه مباشرة، لم يندهش كثيرًا ليهز رأسه موافقًا إياها، دون حتى أن يُدرك ما قالته قبل ثوان.

- أتعلمين لا يوجد أحد مجبر على الحياة، جميعنا قادرين على الرحيل في أي لحظة، نحن من نحدد مصيرنا هنا، ولكن في حين اختيار الرحيل برغبتك، ستكون مجبرًا حينها على الذهاب إلى مكانٍ واحدٍ فقط!

قالها مراد ثم صمت.

لتمسك براحة يده ثم تشابك أصابعها بين أصابعه قائلة:

- أين ذهبت بالأمس لم أرك طيلة اليوم.

ثم ثوان لتكمل حديثها:

- لستُ فضولية يا مراد، ولكن يؤلمني حزنك، جرب أن تشاركني إياه وتخرجه من داخلك لعلك تنعم ببعض السلام، تؤلمني تلك الدمعة التي أراها دائمًا مختبئة داخل بؤبؤ عينك، ولا هي تختفي ولا أنت ترغب بتركها تنسال على خديك، أراك هشًا تمامًا من الداخل، عكس محاولاتك للبقاء ثابتًا أمامنا وكأنك لست في أسوأ حالاتك، بداخلي رغبة في أن أسلب هذا الحزن من داخلك، أرعى فوضوية حياتك وعقلك وأحاول مداواة تلك الآلام التي لا يراها أحد، أنا هنا بجوارك وسأظل، وهذا ليس وعدًا وإنما حقيقة نحياها الآن أنا وأنت!

سقطت تلك الدمعة من عينه على حين غفلة منه، حاول كثيرًا ألا يتبعثر ولم شتات روحه سريعًا قبل أن ينفجر من البكاء.

حتى لم يعد قادرًا على الكتمان أكثر من ذلك، فقرر أن يبوح ببعض مما يخنقه ويضيق صدره:

- أتعلمين ذلك الهدوء المخيف.. يُزعجني فيه صوت أنفاسي المتقاطعة، دقات قلبي المتسارعة، هو صمت مرعب كافٍ لجنونك وتلف عقلك، حتى الظلام ليس سيئًا بقدر ما يصبح اللون الأسود هو الوحيد على قوس قزح. ليالٍ قاسية قد مرت بيني وبين طيف شخص لا أعرفه، لا يرحل عني ومع ذلك لا يقترب.. فقط حديث يومي عن كل أحداث الماضي، أسوأ شيء في هذه الحياة أن تنهزم وتتحطم ولا تجد أي أحد حولك وكأنك لم تعرف شخصًا واحدًا طيلة حياتك! فالوحدة أفقدتني معنى المشاركة.
- الآن أنتَ لستَ وحيدًا، أنا هنا، لديك أصدقاء، بعض الوقت وسأذهب معك إلى عائلتك لربما يفتقدونك كثيرًا، وتجد ضالتك بين أحضانهم.. سيمضي كل هذا لا تقلق، فقد عانيت كثيرا مع الجانب السيئ، فإياك وأن تفرط بالوجه الجيد من الحياة لأنك تستحقه، لا تفرط به!

ابتسم مراد ابتسامة ساخرة ثم قال:

- عائلتي! لا أجد حتى الكلمات المناسبة لوصف شعوري تجاههم.. وربما كل الجوانب تصبح سيئة.. هكذا

علمتني الحياة، أن أتوقع دائمًا ما هو أسوأ حتى لا أصدم ولا أتعرض لخيبة أمل جديدة!

لاحظ كلاهما وجود سليم على بُعد أمتار منهما، يقف شاردًا رأسه لأعلى مبتسمًا كالأبله، نعم هي أجواء استحضار الذكريات المؤلمة.

حتى لاحظ هو الآخر وجودهم بالجوار فتحرك نحوهم بخطوات مترددة حتى اتجهت شمس نحوه قائلة:

- لماذا لم تسترح يا صغيري، أنت منهك وعيناك ذابلتين، اصعد لغرفتك وفي المساء سنذهب لكل الأماكن اطمئن.

لم يُعقب مُراد على حديثهما بينما رد سليم قائلًا:

- اللقاء الأخير بيننا كان هنا، جلسنا على تلك الصخرة الضخمة التي على يمينك بالتحديد، كيف أخطو إلى عروس البحر المتوسط ولا أتجه سريعًا إلى أهم الذكريات في حياتي رغم كونها الأسوأ، أصوات الأمواج هي السمفونية التي كتبت الوداع الخاص بنا، هي نفس لسعة الهواء بالأجواء، الصخرة نفسها لم تتغير، نفس السمفونية تعزف وكل شيء كما هو إلا هي.. أين هي!

- أين هي!

قالها مراد بعد حديث سليم مباشرة.

بهدوء رجل أربعيني أشعل سيجارته وبعشوائية شاب لم يتم العشرين بعد قام بنشر دخانها في الهواء ثم تحدث:

- لا أعلم، ولكني سأجدها يومًا ما، هذا هو الأمل الوحيد المتبقي لي.. فلولاها لم ترددت ثانية واحدة في البقاء على قيد الموت منتظرًا الحياة!

رفع مراد حاجبيه مواسيًا إياه ثم تحدث:

- من الجيد أن يمتلك المرء أملًا يسعى خلفه، فمهما اشتدت الآلام سيتذكر أن هناك شيء ينتظره بالنهاية، شخص سيربت على كتفه بعد كل الصعاب التي سيمر بها، لم يكذبوا حين قالوا أن الإنسان يعيش لأيام بلا ماء أو طعام، ولكن لا يعيش لدقيقة واحدة دون أمل. لا أحد منا بلا أمل، كلنا لدينا أماني حتى ولو كانت مستحيلة، ولكن نعيش على أضعف إيمان بإمكانية حدوثها، لذلك ستجدها يا صديقي لا تقلق.

ابتسمت شمس بعدها حين بدأ الاثنان في تقبل بعضهم والحديث يزداد في الآونة الأخيرة بين الجميع.

مُراد

أنتَ ترتجف من البرد، نحن نرتجف من الحزن!

وكعادة كل جميل ينتهي بخيبة أمل جديدة، كنت خائفًا من انتهاء تلك الرحلة بسوء، ولربما يحدث شيء مخالف لقوانين الحياة وتنتهي بسلام مثلما بدأت!

لم أسلم من فخ الذكريات أنا الآخر بينما كان سليم يروي علينا قصته..

شردتُ بعقلي بعيدًا بينما تركت عيني تكمل استماعها لحديثه.. أتذكر مكان لقائي مع إيلين.. كان قريبًا من هنا أيضًا.. وبذاكرتي الضعيفة فشلت في تذكر أين كنا جالسين.. ولكن لم أنس حرفًا واحدًا من حديثها هذا اليوم.

فكلما تشاجرنا كنا نأتي إلى هنا ونجلس حتى نجد حلًا لمشاكلنا.. نتحدث حتى ينتهي الكلام ونستنشق هواءً لطيفًا يجعلنا نتغاضى عن أي حزن قد أصابنا، ثم أمسك يدها ونعود إلى القاهرة وكأننا نبدأ للتو من جديد!

كانت أيامًا رائعة، أتمنى من كل قلبي لو أحيا يومًا واحدًا منها مرة أخرى، ولو كلفني ذلك حياتي كلها فلن أتردد في طلب يوم واحد آخر أحيا فيه بسعادة مع إيلين.

شمس فتاة تسحبني نحو الحياة حتى وإن كانت هي خارجها، لا أعلم كيف لفاقد الحياة أن يعطيها لغيره ولكنه الحب، يكسر ويحطم كل مسلمات وقواعد البشر!

ابتسمت بعد كل هذا الشرود ليصادف انتهاء حديث سليم فرفعت حاجبي معبرًا عن مواساة كاذبة لابد منها، ليتركنا بعدها راحلًا بخطوات ثقيلة وما أن نهضت شمس من على أحد الصخور لتذهب خلفه حتى أمسكت بذراعها وقلت:

- اتركيه وحده قليلًا، إنه يستمتع بالذكريات التي لن تحدث مرة أخرى.. دعيه يواجه الماضي حتى يسلم قليلًا من قسوة الواقع.

هزت رأسها معبرة عن موافقتي الرأي ثم جلست مرة أخرى وهذه المرة التصقت بي من شدة الهواء والبرودة، لحظات ثم بدأت في فرك يديها والنفخ بهما ليدفأ قليلًا وسط هذه الصقيع البارد.

بحر الإسكندرية مبهج، السماء المحملة بالأمطار والمرسومة بالسحب التي تميل للحمرة هي أكثر من مدهشة، الهواء الشديد يخترق عظامنا ومع ذلك كنا في أقصى لحظات الاستمتاع..

أشعلتُ سيجارة بأنامل مرتجفة ثم قلت مازحًا:

- لن أُعطيكِ المعطف، لا تحاولي.

لترد هي بضحكة بسيطة لا تكتمل أبدا:

- لا أريده من الأساس، فلا أشعر بالبرد..

لم تكمل جملتها حتى تخبطت أسنانها في بعضها البعض فضحكنا أنا وهي.

لتتابع بعد دقائق:

- يداي فقط باردتان، حقًا لا أشعر بالبرودة، ربما أرتجف ولكن هذا بفعل الحزن في قلبي، وحين يغلب على الطقس ذلك البرد.. أرتجف بحرية! قلبي بارد للدرجة التي جعلتني أرتجف وسط نهار أغسطس يا صديق!

لففتُ ذراعي حولها لأحتضنها بينما هي اختبأت داخل معطفي وهي تخبرني بأن الجو أصبح جميلًا للغاية، لتخطف بعدها السيجارة من فمي وتلقيها في البحر ضاحكة.

لأجد نفسي بلا أي تفكير أتحدث:

- إيلين لماذا!

صمت تام قد احتل الأجواء بعد تلك الجملة.. ابتعدت قليلًا عنها لأقع فريسة سهلة لعقلي اللعين الذي انهال عليَّ بالأفكار المؤلمة، إيلين من كانت تلقي دائمًا سجائري.. هي قد رحلت للأبد.. لن أعيش وحيدًا طيلة العمر.. سأعيش.. هي حبيبتي الأولي والأخيرة.. تضاربت الأفكار بداخلي كثيرًا حتى لم أعد أستطيع التحكم في حركات يدي لأفشل في إخفاء نوبة حزن هيسترية..

أشعر حقًا بأنني أختنق وسط هذا الهواء الشديد، أحاول التنفس شاهقًا بصوت أخاف شمس، التي تقف عاجزة عن فعل شيء.. أمسك برأسي ثم أضرب منتصفها في محاولة بلهاء لإيقاف تلك الأفكار التي تتردد بداخله.. لتمسك شمس بذراعي وهي تحاول تهدئتي بعد أن أدركت أن نوبة من الحزن الشديد قد مرت على قلبي..

رويدًا رويدًا استجبت لها بعد أن ضمت رأسي إلى صدرها وقبلت رأسي وهي تداعب خصلات شعري قائلة:

- اهدأ عزيزي، كل شيء سيمضي، اطمئن أنا هنا.

***

الكاتب

هل كان كل ذلك يستحق!

انتهت رحلتهم سريعًا، يتجهز الجميع للرحيل وهم منهكون من ليالٍ مضت في السهر والرحلات خارج الديار.. يسير الجميع خلف أحد أفراد الأمن الذي يحمل حقائبهم متجهين إلى بوابة الخروج من الفندق، بعد تحية من مديره لفريد كي يبلغ السلام لعائلته.

ركبت شمس بالمقعد الأمامي للقيادة قائلة:

- اركب بالخلف يا فريد، أنت لازالت غائبًا عن وعيك.. ولا أحد منا يريد الموت هذه الليلة.

ابتسم الجميع موافقًا إياها الرأي.. ثم بدأت رحلتهم للعودة بعد أن حركت المفتاح لليمين واندفعت السيارة في طريقها.

دقائق قد مرت، كان استعد فيها الجميع لوضع السفر حتى توقفت السيارة على اليمين في أحد أفضل الإطلالات على ساحل البحر قائلة:

- فليخرج الجميع من السيارة.

ثم خرجت دون أن تشرح لهم أي شيء، نزع سليم سماعاته من أذنيه متعجبًا، بينما تأفف فريد لرغبته في النوم، وكان مراد الوحيد الذي نزل دون أن يفكر في أي شيء.

"فليتمن كل منكم أمنية من البحر قبل أن نرحل"

قالتها بعد أن شبكت أصابع يديها في بعضها وبابتسامة تمتص غضبهم.. حتى وافق الكل دون أن يبدوا أي اعتراض، وكأنهم يودعون الإسكندرية بطريقتهم الخاصة.

تحرك فريد ليستلقي على أحد الصخور المستقيمة، ثم أزاح النظارات الشمسية عن عينه ليلقيها في البحر أمامهم وهو يضحك، ثم قال:

- أتمنى استعادة نظارتي الشمسية!

ليضحك الجميع حتى تحدث سليم ساخرًا:

- كانت محقة عندما لم تتركك تقود السيارة أيُها الأحمق..

ليتابع بعدها قائلًا:

- أتمنى حقًا لو يسامحني كل من تسببت لهم بأذى من قبل، الأمر عسير.. يكاد يكون مستحيلا، ولكن ربما، ربما

الأمنيات كلها تتحقق يومًا ما، فأنا أعيش على هذا الأمل.

- أتمنى أن أجد ضالتي في هذه الحياة، وهي حبيبتي التي اختفت، والتي ظننتُ نفسي مجنونًا كثيرًا وإنها لم تكن حتى في الوجود، ولكن رسالتها الأخيرة تؤكد لي أنني لست كذلك وأن هذا الألم حقيقي، أعيش على هذا الألم، أقصد الأمل. وهو أن أجدها.

قالها سليم بعد حديث فريد مباشرة ثم ألقى سيجارته بالبحر وارتدى قبعته السوداء المائلة على وجهه لتخفي عينه.

أنهى حديثه ليتجه الجميع بنظرهم إلى مراد في انتظار أمنيته في هذه الحياة، ولكنه ظل صامتًا حتى خبطته شمس في كتفه قائلة:

- تحدث.. هيا!
- تحدثي أنتِ أولًا.

لتنظر إليه كأم تستجوب طفلها العنيد، ثم تحدثت:

- أتمنى لو أن تسامحني عائلتي يومًا ما، رغم أني لم أفعل شيئًا لهم يستحق أن أنتظر منهم الغفران ولكن اشتقتُ كثيرًا لهم، حتى بعدما سببوا لي كل هذه الجراح التي

أفسدت حياتي، وجودهم كان حملًا ثقيلًا على صدري يخنقني، ولكن غيابهم كان أشبه بانتزاع قلبي ورمى كل أعباء الحياة على صدري.. فلا أختنق ولا أجد حدًا للألم.. بدونهم أنا كفريسة سهلة لكل صياد جديد بدأ في سلب حياة البشر، فربما أن تقتل على يد صاحبك مرة أهون بكثير من أن تُقتل من أعدائك كل يوم!

لم يعقب أحد على حديثها، هذا الشرط الوحيد الذي وضعته قبل أن يتمنى كل شخص منهم، ألا يعقب أحد على حديث الآخر.

لن يسلم مراد من نظراتهم الآن، حتى تحرك خطوات قليلة يحاول إيجاد كلمة مناسبة، أو حتى شيء يتمنى حدوثه ولكن بالنهاية قال:

- لا أتمنى شيئًا من الحياة!
- إذن لماذا تعيش؟
- أنتظر نهاية كل شيء.
- فلتذهب إليها وأرح روحك من كل هذا العناء!
- ليس سهلًا بقدر هذا الحديث، لا يذهب أحد إلى نهايته.. الموت وحده يختار صاحبه، يختار موعد قدومه، فربما موعد نهايتك تأخر لكونك مؤثرًا في حياة

أحدهم ليس إلا، ربما تنتهي حياتك وتبقى حيًا فقط لأن هناك حياة أخرى لن تكتمل إلا بوجودك، الأمر معقد لا تهتم.

صمت فريد بعد رد مراد العميق والذي لم يفهمه كثيرًا. ليرد سليم قائلًا:

- نحن هنا لا نمتلك شيئا، لو فكرت قليلًا لوجدت أنك مجرد مستأجر لبعض الوقت في الحياة، وعقدك معها ينتهي حين تريد هي ذلك، حقوقك بأكملها تتلخص في حفنة الوقت الذي تعيشه الأن وترعي كل أملاك الحياة التي ستعطيها لغيرك بعد سنوات، ثم غيركم.
نحن بالحياة لا نمتلك إلا بعض الوقت، ومع الأسف نهدره بكل بساطة ولا نهتم!

أشار الجميع برأسه كعلامة على إعجابهم بحديثه، ثم ابتسم الجميع وعادوا أدراجهم

إلا شمس التي اتجهت لمؤخرة السيارة وجلست بجوار الزجاج الخلفي المنقوش عليه رسمة أو رمز لم يفهمه مُراد..

نادت سليم ليصورها بجانب الزجاج المرسوم بشيء غريب ولكنه يبدو أنه عظيم بالنسبة لهم، ثم صرخت قائلة:

- Çukur Her yerde.

الحفرة في كل مكان.

ليردد بعدها سليم نفس الجملة، ثم بدوره فريد يكررها أيضًا في فرحة أحاطتهم جميعًا إلا مُراد الذي لم يفهم ما يحدث.

حتى تحدثت شمس:

- الحُفرة يا مُراد.. كيف لا تشاهده!

ثم تابعت بسخرية:

- الخطة الأولى لنا بعد عودتنا.. سأجعلك تشاهد الحلقات الأولى التي عُرضت، إنه مسلسلنا المفضل.. واثقة بأنه سينحفر بقلبك.

لتنتهي بعدها رحلتهم على أرض الإسكندرية عائدين إلى الوطن البائس في القاهرة.

أصر فريد على قيادة السيارة بعد أن أقسم عشرات المرات أنه قد استعاد وعيه، فتركت شمس له القيادة وعادت لتجلس بالخلف بجوار مراد، بينما جلس سليم بالكرسي الأمامي جانب فريد.

وصل الجميع سالمين إلى أرض الوطن الآمنة من كل البقاع الأخرى، نعم القاهرة رغم قسوتها إلا وأنك مهما رحلت عنها ستجد أنك تشتاق إلى شوارعها المزدحمة بالبشر، القصص والحكايات التي لا تخلو من حواريها، الشجارات والظلم والبهجة وكل شيء.. فالوطن يظل مأمنا مهما كان قاسيًا!

الكل في حالة من الخمول بعد رحلة مرهقة بينما فريد وحده يدخن سيجارة من الحشيش مستمتعًا بالطريق بعد أن رفع صوت الأغاني متراقصًا بالسيارة يمينًا ويسارًا في سرعة لا تناسب الطرق الداخلية للقاهرة.. الأغلب مستاء مما يفعله فريد خوفًا من أن يدهس أحدًا تحت عجلاته وكالعادة كل ما نخشاه تأتي به الحياة وتلقيه أمامنا حتى تجبرنا ألا نهاب شيئًا وتتجمد قلوبنا!

شاب يقف بمنتصف الطريق شارد يلتفت حوله، وفريد يتراقص بالسيارة على أمل أن يتجاوزه بمهارة واحترافية ولكن لغباء الشاب قد ركض ليعبر الطريق ولم يعد أدراجه مثلما كان متوقع أن يفعل أي شخص في مكانه، هكذا سيكتب في التقرير، أن الاصطدام الدموي الذي لمست فيه روح الشاب الحرية لعدة ثوانٍ كان بسبب غبائه وليس لوقاحة وتهور فريد إطلاقًا!

صرخت شمس في حالة هيستيرية وسليم تجمد على كرسيه عاجزًا عن النطق، ومراد أصابه الجنون متتاليًا بالضربات إلى فريد حتى يتوقف ويعودوا لإنقاذ الشاب وتفقده ولكن فريد الذي ارتبك وانسال شلال من العرق على وجهه لم يقدر على الوقوف بل وزاد السرعة ليهرب بعيدًا.. مراد يزداد غضبًا حتى أمسك برأس فريد صارخًا:

- أوقف السيارة أيها اللعين، أوقفها!

ظل ممسكًا برأسه في محاولة لإيقافه ولكنه فقد السيطرة على القيادة فما وجدوا نفسهم إلا في مشهد سواد تام، صوت صفير يقل تدريجيًا داخل آذانهم وكأن الحياة تختفي تمامًا.. قوة الارتطام بشيء يجهلونه كانت كافية لسلب شعورهم بالحياة بعد ثوان من الاصطدام!

بعد يوم..

فتح عينه ليجد أضواء خافتة مُعلقة صوب عينه مباشرةً.. وصوت ثرثرة مبهمة حوله، أخذ نفسًا ثم فتح عينه مرة ثانية وقد استفاق حينها ليجد ممرضة تحقن المحلول المعلق على أحد العصيان الطبية بجواره، الغرفة هادئة يفوح منها رائحة

العطر والزهور، وهذه الممرضة الحسناء تثرثر بلكنة مثيرة مثل جسدها تمامًا الذي أبصره جيدًا بعد أن فرك عينه، واطمأن سريعًا على جسده ليتأكد أنه ليس في تلك الغرفة المشئومة التي لا ينسى جوانبها التعيسة، بعض الخدوش في وجهه وألم بسيط في قدمه اليسرى ولكن ليس عائقًا عن نهوضه.

لاحظت الممرضة حركة مراد فأغلقت الهاتف سريعًا وهندمت ثوبها الطبي ناصع البياض ثم قالت بابتسامة رائعة:

- good morning مستر مراد، أتمنى لك شفاءً عاجلًا والنهوض سريعًا فجميعنا نفتقدك.

قالت جملتها بطريقة أجبرته على أن يبتسم لها في بلاهة، ثم قال بتلعثم:

- شكرًا جزيلًا لحديثك اللطيف.

لم يعتد على هذه المعاملة من الممرضات سابقًا، هل هنا يضمدون جراح جسدك أم قلبك! هكذا قالها بداخل نفسه وهو مازال يرسم الابتسامة على وجهه ويتابع بعينه وجهها الحسن وعينيها الزرقاء التي تناسب كثيرًا شعرها الأصفر الذي ربطته للخلف بطريقة يجهلها، ولكن كانت رائعة بل مثالية بالنسبة لممرضة!

تحركت بخطوات هادئة لتزيح الستائر لليمين حتى تتسلل أشعة الشمس للداخل وتكشف كم أن هذه الغرفة هي أفضل مكان قد جلس فيه بعد أن اعتدل في جلسته وأدهشه وجود النيل أمامه من النافذة..

- سأتركك الآن لتسترح قليلًا، وإن احتجت شيئًا فقط اضغط على الزر بجانب السرير وسوف يأتي أحد ليساعدك، everything will be okay.

قالت جملتها واتجهت للخارج بقوامها المشدود وخطواتها المثيرة التي أضحكت مراد كثيرًا، كيف لهذه الفتاة أن تكون ممرضة! هكذا كان يضحك وهو يحاول استيعاب الأمر.

تذكر ما قد حدث لتختفي الضحكة سريعًا من وجهه، بعد أن تأكد أنه في مشفى الأغنياء بفضل فريد، فريد الذي تسبب في كل ذلك! أين هو وأين شمس وسليم!

تحامل على نفسه ونهض ليرتدي كنزة سوداء كانت معلقة بجانبه، وبنطالا أسود لا يكسر سواده أي شيء، ثم أغلق زجاجة المحلول بعد أن نزع كبسولتها من ذراعه واتجه للخارج في خطوات أصابها العرج مؤقتًا.

سأل إحدى الممرضات الجالسات بالرواق عن أصدقائه الذين جاء كل منهم معه بالأمس، رفعت الممرضة التي كانت معه بالغرفة منذ قليل حاجبيها ثم قالت:

- لم يأت معاك سوى أستاذ فريد بالأمس، اطمأنَ أنك بخير ثم رحل ولم يخبرنا بشيء آخر.

ابتلع ريقه بصعوبة، تجول بعقله الكثير من التساؤلات التي يخاف حتى أن يطرحها على نفسه، اتجه سريعًا وهو يعرج إلى الدرج لينزل لأسفل تاركًا المصعد الكهربائي ليتعجب منه أحد المرضى الواقفين.. ينزل بقدم واحدة والأخرى تليها على نفس السلم بزاوية مائلة، حتى وصل للدور الأرضي الذي يبدو وكأنه أقل درجة أو اثنتين في كل شيء، هيئة الغرف، رائحة المكان المليئة بعطر المخدر والأدوية.. حتى الممرضات قد عادوا إلى طبيعتهم بهذا الدور، نعم إنه مشفى حقيقي!

- مراد، كيف حالك هل تزورنا مرة أخرى ألم تسأم؟

قالتها سيدة تضع يديها في جيوب ثوبها الأزرق، تمضغ العلكة بطريقة استفزازية وتضع هاتفها بين حجابها الأبيض وأذنها!

ليلتف بوجهه ويرى ممرضته القديمة أمامه تسأله عن حاله.. ليصيح قائلًا:

- كيف.. كيف جئتِ هنا!
- هنا مكان عملي، على العموم سررت للقائك عليَّ الذهاب لأنني متأخرة على أحد المرضى، تعلم جيدًا خفة يدي.

قالتها وهي تضحك بسذاجة في وجهه.

ثم توقفت لحظة لتخبره بأن ينتظر عدة دقائق حتى تعود .. لم يرد مراد وانتظر في صمت حتى عادت ومعها ملف بيديها وقالت:

- هذا ملف حالتك الطبية.. بعد هروبك من المشفى لم يأت أحد ليسأل عنك وبقي هنا، رُبما تريد أن ترى ما حدث لك في هذه الحادثة.

التقط الملف من يديها وبدأ يسير خارجًا من البوابة حتى توقف فجأة وعبث قليلا في رأسه قبل أن يتحدث:

- انتظري، عندما جئت هنا في المرة الأولى.. من تكفل بتكاليف عمليتي وبقائي هنا!
- أستاذ فريد، ابن كمال بيه الهواري مدير المستشفى.

***

تلك التراكمات الصغيرة قادرة على هدمك في أي لحظة ولأتفه الأسباب..

مُراد

كل شيء ينتهي، إلا الحُزن.

كم هو مؤلم الشعور بأن الحياة كلها تقف أمامك، وبالمقابل أنت تقف وحدك مجرد السلاح، مستعد تمامًا للاستسلام والخضوع للنهاية، ليس عدلًا أن تواجه حياة كاملة وحدك ومع ذلك لا تأتي الحياة وتنهي أمرك، ولا المرء أصبح قادرًا على الوقوف أمامها حتى، فالعجز الذي يأتيك منها هو من أسوأ أنواع العجز التي قد تمر به.

تحاملت على نفسي وخرجت مسرعًا من ذلك المشفى المشئوم لأتنفس بعض الهواء النقي بعد أن اختنقت بالداخل، ثقل رأسي كان يفقدني توازني ولكن اتكأت على ألمي ومضيت في طريقي الذي أجهل حتى نهايته، أسير ولا أصل إلى ما أريده، عقلي حتى يرفض استيعاب كل هذه الأحداث الغريبة، وجدت نفسي أمام منزل سمر، فهكذا قادتني قدماي.

بقيت بالأسفل بعض الدقائق ولكن شرفتها كانت مغلقة والأضواء منطفئة بالداخل، ولم أتحمل برودة الجو والأمطار التي انهالت على جسدي المتهالك.

لذلك صعدت لمنزلها فلعلها تعطيني معلومة عن كل هذا العبث الذي يحدث، بحركات عشوائية كنت أطرق الباب حتى استجمعت القليل من عقلي وضغط على الجرس بجانب الباب، دقيقة ربما مرت حتى فتح رجل خمسيني العمر، ذو شارب أكله الشيخ ورأس صلعاء يتناثر بها بعض الشعيرات على الجانبين، ليقطع شرودي قائلًا:

- تفضل، من أنت؟

كنت أتحدث بصعوبة، الألم بجسدي وعقلي جعلوني أتلعثم كثيرًا وأنا أخبره:

- سمر.. أنا صديقها من ال.. الجامعة.

تبدلت ملامحه وهو ينظر لي فتابعت كلماتي قائلًا:

- تركت معها شيئًا الأسبوع الماضي وجئت لأستعي...
- ماذا تقول! كيف.. أنت في عنوان خاطئ بالتأكيد!

قالها بعد أن ابتعد خطوة للوراء وأغلق الباب في وجهي ليتركني واقفًا بلا حركة، فاتحًا فمي وعيني شاردة لا أعلم ماذا يحدث، حتى وجدته يفتح مرة أخرى ويقول:

- سمر ابنتي.. فارقت الحياة منذ ثمانية أشهر! كيف قابلتها الأسبوع الماضي، هل تسخر مني؟ أنت مجنون بالتأكيد، ارحل!

رأيته يبكي قبل أن يغلق الباب في وجهي للمرة الثانية، وضحكت أنا ضحكة سالت معاها دموعي على وجنتي بطريقة فشلت عن إيقافها.

لا لا بالتأكيد هذا العجوز قد شاب وفقد عقله، سمر على قيد الحياة، شمس والبقية رأوها معي في المقهى نعم، سأثبت له أنها بخير ومازالت في عداد الأحياء، خرجت من البناية كلها وأنا أحدث نفسي بكل تلك الكلمات، بالتأكيد لم تمت.. بالتأكيد!

الأهم أنني لم أتذكر أين منزل فريد، لا أجد أي شخص منهم، أرتعب كثيراً لمجرد تخيلي بأنهم جميعًا كانوا وهمًا! لن أتحمل هذا العذاب.

سريعًا أخرجت الملف الطبي الخاص بي من داخل ملابسي.. فقد خبأته حتى لا يهلك من الأمطار، والآن ليس مهمًا سوى أن أجد شيئا يساعدني فيما يحدث لي!

بأنامل مرتجفة أعبث بين صفحاته، الأمطار تُغرق الاوراق ولا أجد إلا كلمات طبية مثل كسر في الساق، إغماء لأيام.... لا أهتم بكل هذا حتى وجدت ورقة بعنوان الحالة النفسية للمريض.

انتشلتها قبل أن تبتل تمامًا وركضت بهرولة لأقرب مكان أحتمي به من الأمطار لأقرأ ما هو مكتوب.

خيالات للمريض تحاوطه... الغرفة

غير متزن... إيلين...

لم أستطع فهم الجمل فالأمطار أفسدت الكثير من الكلمات! بصعوبة بالغة استعطت أن أفسر السطور الأخيرة التي تؤكد إصابتي بمرض نفسي يجعلني أرى خيالات وأشخاص ليسوا موجودين..

لن أكمل ما تبقى، ولم أهتم بالتفاصيل الباقية، ألقيتُ بالأوراق على الأرض الغارقة بالمياه وبدأت أتحرك ولساني يردد كلمة:

- مجنون..

ثم أضحك.

- أصبحت مجنونًا..

ثم أضحك.

- لقد جُننت..

ثم بكيت!

ظلت قدماي تقودني إلى حوارٍ صغيرة وشوارع عمومية في أماكن فخمة.

أعتصر المواقع في عقلي حتى أتذكر أين منزل فريد ولكني عاجز عن إيجاده وسط ما يملؤه من تخيُلات سيئة، ساعات مضت حتى توقفت تمامًا في أحد الشوارع الهادئة والمنازل شاهقة الارتفاع، نعم إنه الرسوخ للواقع مهما كان قاسيًا، سقطت كل آمالي الزائفة قبل أن أسقط أنا بعدها في زاوية هذا الشارع المقابل للنيل، أرى نفسي أعود إلى نقطة أقل من الصفر، وحيد، شارد، بلا أحد!

بل وأمتلك ذكريات جديدة لدائرة حياتي التعيسة، أشعر أيضًا بحجر من سقف الغرفة وهو يسقط على وجهي مجددًا فأفتح

عيني لأجدني في زاوية الشارع وليس في غرفتي البائسة، أيهما أسوأ أن يكون هذا حلمًا وأستيقظ بغرفتي أم أكون مجنونًا يخلق أشخاصًا من العدم!

إنها أعراض الموت تصيبني من جديد، حقًّا إن كل المشاعر المؤلمة في هذه الحياة من فقدان أو خذلان وهجر الأحبة، تدهور صحتك وخسارة كل شيء، كل هذا لا يضاهي الشعور بالموت، شعور أنك لم تعد حيًا وأن هذه لحظاتك الأخيرة وأنفاسك ستنتهي بعد ثوان.. وفي كل مرة ستشعر بهذا الشعور سيليه محاولة انتحار فاشلة حتى تعود للشعور بالحزن والألم بدلًا من الموت.

كان لك معايا..

أجمل حكاية

في العمر كله!

انتفضت من قبري قبل أن أغلقه بعد أن اخترقت أذني تلك الكلمات، إنها هي، الأغنية التي كنت أدندنها مع شمس على سطح منزل فريد!

هرولت ناحية الصوت متتبعًا إياه كالمجنون حتى وجدت مصدره في نافذة مفتوحة على مصراعيها، وبالمقابل منزل فريد والبناية نفسها التي قضيت فيها أيامًا مع الأصدقاء..

وكأن الحياة تعطيني فرصة جديدة وربما هي الأخيرة، لإصلاح بعض الأمور، فعلى الأقل حتى لن أصبح مجنونًا!

أنفاس متسارعة وسعال قد ازداد من صدري وأنا في طريقي للصعود إلى الشقة.. حتى وصلت لأجد آثار حريق متبقية في المكان!

جلست مكاني على أحد السلالم باكيًا من الفرحة، ليسوا وهمًا ولستُ مجنونًا..

هندمت ملابسي قليلًا ثم طرقت الباب عدة مرات ولم يفتح أحد، اقتربت بأذني من الباب لعلي أجد صوتًا بالداخل ولكن كان الصمت يعم.. ربما خرجوا نعم، سيعودون عما قريب بالتأكيد!

أقنعت نفسي بذلك ثم أكملت الصعود إلى سطح البناية لأتنفس بعض الهواء حتى يعودوا.. وبخطواتي الهادئة أثناء دخولي وجدت شخصًا يجلس مقرفصًا يسند ظهره على السور ويدفن رأسه بين ركبتيه، فتحدثت قائلًا:

- من هناك!

رفع رأسه لأجد أنه فريد، لأندهش من وجوده هنا وبهذه الطريقة، لم يتحدث وظل يتابعني بعينيه التي امتلأت بالدموع حتى تحدثت مرة أخرى:

- أين شمس وسليم، وماذا تفعل هنا؟

لأجده يرد كالجماد:

- استيقظنا من الحادث لم نجد شمس، اختفت!

ابتلع ريقه ثم واصل:

- أحزمة الأمان والوسائد بالسيارة حافظوا على حياتنا، أنتَ وحدك تأذيت لأنك نزعتهم وأنت تحاول إيقاف السيارة وإيقافي.. وحين استعدت وعيي لم أجد شمس... أخذناك أنا وسليم إلى المشفى سريعًا، لا أعلم كيف ومتى وجد حبيبته التي يبحث عنها فتركك معي بالمشفى وذهب للجلوس معاها، ولم يعد.. أيضًا بالمشفى علمت أنك لم تصب للمرة الأولى، هناك وغد لعين يستحق الموت قد دهسك بسيارته منذ أشهر، أنا هو هذا اللعين الذي ربما حطم حياتك بالسابق! لا أعلم لم أوقعك القدر بطريق من أفسد حياتك مرة أخرى

حين رأيتك بالمقهى تقرأ بعض الأوراق وتحدث نفسك عن السبب الذي يدفع شخصًا للانتحار.. والآن أكرر نفس الشيء، أنا لم أعد قادرًا على مواصلة هذه المعاناة، ربما تندهش من كوني أسبب الألم لكم ثم أدعي الحزن. ولكن أقسم إنني حاولت أن أكون صالحًا، ولكن هذه الحياة.. ودوري بها أن أكون شخصًا سيئًا فلن تتحقق العدالة إن لم يكن هناك أشرار يظلمون الأبرياء، لا وجود للخير دون أن يوجد الشر، دوري بالحياة أن أكون الأسوأ لنجد الأفضل وتكتمل حينها الدائرة التي تجعل الحياة موزونة، سامحني إن استطعت.

صدمني حديثه بطريقة مرعبة، لم أعلم ماذا سأقول، أو ماذا سأفعل.. تركته ونزلت لأسفل أحاول الركض هاربًا ولكن الألم بساقي يمنعني، كل ما مررت به يجول بعقلي واحدًا تلو الأخر، لو لم يدهسني يومها، فربما كنت أجد مصيرًا مختلفًا، كنت حتى رأيتها للمرة الأخيرة! أو حتى حاولت إنقاذها!

سمر كانت وهمًا! لم تكن معي بالمقهى.. فارقت الحياة! كيف وماذا يحدث!

ولو فارقت الحياة لماذا ظهرت لي! لماذا حدثتني عن كُل هذا!

خرجت من البناية وأنا أحاول التماسك فلا يجب أن ينهار المرء في وقت صدمته، لأنه لن يقوى على النهوض بعدها.. حتى فرصتي الجديدة في الحياة سلبها فريد، اللعنة عليك يا..... اللعنة!

صوت ارتطام صاخب قد اخترق أذني، لألتفت خلفي فأجد فريد غارقًا بدماء جسده وسط إحدى السيارات الفاخرة.. ذلك المشهد الذي تخيلته كثيرًا ولم أتجرأ على فعله.. هو قام بتأديته بطريقة مؤلمة كلفته حياته.

جثوت على ركبتي، أضع يدي على رأسي من الدهشة وأعجز حتى عن ابتلاع ريقي، رغم كل ما سببه لي في حياتي من آلام، فقد تمنيت كثيرًا ألا يكون هذا حقيقة وتصمت سارينة السيارة التي مازالت تتكرر منذ ارتطامه بها!

مسحت وجهي بأصابع ترتجف، واتجهت نحو كورنيش النيل لربما أجد سليم هناك ويخبرني أي شيء عن اختفاء شمس غير المنطقي، ابتلعت كل ذلك الألم وأكملت طريقي كالجثة الهامدة حتى وصلت إلى إحدى المناطق التي ذكرتها لي شمس من قبل عندما قابلت سليم هناك، وبالفعل لم يخب ظني ووجدته جالسًا هناك بجوار فتاته مباشرة أمام النيل، المكان بأكمله فارغ

حولهم فالأمطار كانت قاسية، جالسان يستمتعان بهطولها عليهم مكتف كل منهما بغطاء معطفه فوق رأسه.

اتجهت نحوهما بخطوات ثابتة ثم تحدثت قائلًا بعد أن اقتربت منهما:

- سليم..

اقتربت بخطوات مترددة ثم ذكرت اسمه حين ما اقتربت..

نظر الاثنان نحوي بعدها، لأسقط في مكاني من الفزع.. فتتناثر قطرات المياه حولي، وتتسارع أنفاسي بينما تدفع يدي الأرض زاحفًا بعيدًا عنهما.. من هول الصدمة لم أقدر على الحديث.

فأنا أعلم جيدًا أنه ليس حلمًا ولا أتوهم.. إنها الحياة!

- إي.. إيل.. إيلين!

قلتها بصعوبة بعد أن رأيت حبيبتي الغالية تجلس بجوار سليم لتصدم هي الأخرى لرؤيتي بينما خلع سليم قبعته غير مدرك لما يحدث.

مجهول

إيلين

- أعتذر عن كل شيء يا سليم، رغبتي بالرحيل هزمتني دائمًا، أخاف كثيراً من أن أترك وحدي لذلك أرحل، لم أعد أعلق روحي بشيء خوفًا من أن أفقده، أحاول التنازل عنه راضية أفضل من أن تسلبه مني الحياة.
- ولكنك كنتِ أملي الوحيد، لم يتبق لي سواكِ، رحيلك أهلكك قبل أن يهلكني، وها نحن معًا من جديد، لم يكلفك الرحيل إلا عذاب الوحدة التي فرقتنا..
- أدركتُ هذا بالنهاية، فالحياة أقصر مما تتخيل، حين رأيتك البارحة مصابا على باب المشفى، انخلع قلبي. تخيلتُ لو كان حادثًا أليمًا ولم أجدك حينها مرة أخرى! العالم دون أحد لا يطاق، أتعلم.. أنا من كارهي فكرة وجود البشر ومع تجربتي لانعزالهم تمامًا تألمت كثيراً.. فالبشر مهما كانوا سيئين فهم يعطون معنى للحياة!

ازدادت الأمطار علينا فضحكنا سويًا وأقررت أن تكون هذه النهاية.. نهاية الحزن، نهاية الألم والوحدة، ولو كانت حتى مؤقتة يكفي أن يشاركني بها أحد.

ثم تابعتُ قائلة:

- لن أتركك مرة أخرى يا سليم، أمامنا حياة تعيسة نتشاركها.

قلتها مبتسمة محاولة استيعاب بداية جديدة لحياتي، ثم لم تمض دقيقة وكانت للحياة رأي آخر في سعادتي، فألقت على صدري كل آلام الماضي في ثانية واحدة حين وجدت مُراد يفسد كل شيء!

***

الكاتب

الحب وحده ليس كافيًا!

الأمطار تنهال على رؤوسهم بغزارة، الطريق فارغ تمامًا والإضاءة الحمراء الآتية من أحد أعمدة الإنارة ترتعش، الصدمة قد حلت ضيفًا مرعبًا على قلوبهم الضعيفة، حتى بدأت إيلين بالحديث قائلة:

- ماذا تفعل هنا! هيا، هيا نرحل يا سليم..
- أنتِ على قيد الحياة! لا أصدق أنا لا أحلم.. أين كنتِ!

قالها مراد وهو يضحك ويمرر أصابعه على وجهه وشعره ليزيح قطرات الماء عنهما غير مصدق لوجودها أمامه.

ثم تابع:

- بالتأكيد لم تذهبي.. سمر أخبرتني، ولكن.. هي من رحلت! سليم.. من أين تعرفين...

ليندفع ممسكًا بياقة سليم قائلًا:

- إياك أن تقول أن إيلين هي حبيبتك، إياك أن تفعل ذلك!
- نعم حبيبته!

قالتها إيلين دون تردد، ليتراجع مراد قليلًا للخلف عاقدا بين حاجبيه في أسى قد حطم شيء بداخله قبل أن يظهر أثره على وجهه، لا يحتمل كل هذه الأمور التي تتثاقل بداخل صدره، حتى تابعت حديثها:

- بل أنت أين كنت؟ أين كنت حينما اتصلت بكَ أخبرك أن صديقتي حاولت الانتحار وبانتظار مجيئك؟ أين كنت حين رأيتها تحت الغطاء الذي يوضع على وجه البشر للمرة الأخيرة؟ أين كنت وأنا أنهار كل ليلة ولا أجدك وكأن الأرض ابتلعتك وتعمدت الرحيل في أكثر أوقاتي حاجة لك؟ أين كنت وأنا أضع نهاية لقصة حياتي التعيسة ولكن لسوء الحظ أنقذوني ولم أرحل مثل عزيزتي سمر.. وأين وأين..
والأهم من كل ذلك، لماذا عدت الآن وفي الوقت الذي كنت أرجو من الحياة فرصة جديدة!
عدت لتفسدها أليس كذلك!

دفعته في صدره مرتين متتاليتين ثم أمسكت يد سليم الذي وقف مندهشًا صامتًا لا يجد مدخلا مناسبا للدخول إلى هذا الحديث المؤلم.

بينما كان لوجه مُراد بعض الضحك ضحك عندما استمع لهذه الكلمات من إيلين، ولطالما ظننت أن الضحك في أشد الأوقات مرارة على قلبك يكون ألعن بكثير من أي حزن أو بكاء!

ليتحدث سليم بنبرة هادئة وعينين يحتفظان بالدمع قائلًا:

- حين فقدت كل عائلتي وبقيت وحيدًا بالمشفى، وجدتني إيلين أو أنا وجدتها، وربما القدر كان يحتم علينا لقاء لينقذ كل منا الآخر.. كانت تنهار من فراق صديقتها الوحيدة، ومن صدمة ما بعد استيقاظها من رحم الموت، وما هون عليها هو رؤيتي فاقدًا لكل عائلتي، فبطبيعة الطيبين دائمًا ما يضعون الآخرين أولًا، متغاضين عن حزنهم وهكذا فعلت إيلين، ساعدتني في تخطي أزمتي بينما كانت تساعد نفسها أيضًا. كان يجب أن نلتقي، لولا ذلك فربما لم نكن عشنا حتى هذه اللحظة!

ثم تابع بعد أن أخذ نفسًا قبل أن تسقط دموعه:

- لا يمكنني أن أفقدها مرة أخرى، حتى شمس التي اعتنت بي وبك قد رحلت، إيلين هي فرصتي الوحيدة للبقاء حيًا.

ليتدخل مُراد بنبرة الشخص الذي يتماسك قبل أن ينهار وقال:

- إيلين أنا.. رجاء استمعي يمكنني أن أشرح كل ما حدث.. لقد....

لتقاطع حديث مراد قائلة:

- لا تشرح ولا تحكي لي قصصًا فارغة، لقد تجاوزت وجودك منذ مدة، مهما كانت أسبابك ومهما كان تبريرك لما حدث فلن يعوض عني كل تلك الأيام التي لم أجدك فيها، الحب وحده ليس كافيًا يا مراد، أخبرتك بالماضي وسأخبرك مرة أخرى، انتهت قصتنا، وانتهى كل شيء، حتى ذكرياتنا معًا تشوهت للحد الذي جعلها لا تُذكر.. ارحل ولا تظهر في حياتي مرة أخرى، ولا تقترب من سليم وإلا لن أسامحك طيلة حياتي يا مراد!

لتمسك بذراع سليم ويتجها راحلين بعد أن أنهت حديثها مباشرةً، تاركين مراد واقفًا وحده تحت الأمطار يرتعش جسده

مثل الإضاءة الحمراء حوله، كالتائه الذي فقد حياته وليس موطنه.

- رجاء استمعي لي..

إيليييين..

إيلي

ثم انفجر من البكاء بعد أن خارت قواه وجثا على رُكبتيه وسط بركة المياة أسفل قدميه، لتتناثر قطرات الماء وتسقط أخرى فوق رأسه بغزارة، يُشير بيده المرتعشة نحوهم ويتلفظ ببعض الكلمات الغير مفهومة.. والتي اختلطت بأنين صراخه بعد أن سقط بوجهه وسط المياه الباردة إنه.. بكاء شخص فقد كل شيء لارتكابه أفعالا لم يختر فعلها!

يتذكر ابتسامتها الطفولية في حارتهم بالماضي التي أوقعته تحت تأثير المخدر وسقط بحبال عشقها، صوت أمه الذي يتردد في المنزل ليطمئنه، أوقات الجامعة وضحك الأصدقاء والتنزه ورؤية حبيبته تكبر يومًا بعد يوم وهما يتشاركان كل أعباء الحياة..

بدأ الوضع ينساق إلى خانة الصمت الكاذب.. الذي جعله يرفع وجهه ويكُف عن البكاء، لتصبح ملامحه جامدة خالية من أي

شعور.. فقط كل ما يجول في عقله تلك الكلمات وسط هذه الأجواء الحزينة..

أخبرتك يا مُراد الحب وحده ليس كافيًا..

يتذكر ابتسامتها الطفولية..

صوت أمه الذي يطمئنه يخترق رأسه

أمطار تنهال على رأسه..

الإضاءة الحمراء المرتعشة مثل جسده..

الحب وحده ليس كافيًا

الحب وحده ليس كافيًا

الحب وحده ليس كافيًا

صوت موسيقى بيتهوفن يخترق رأسه..

و.. العالم سيئ.

والآن يقف مبتسمًا ابتسامة هادئة، يمسح بأنامل مرتجفة المياه من على وجهه، رأسه مرتفع لأعلى ينظر للسماء ثم يصرخ بقوة قائلًا:

- ثم ماذا.. انتهى، انتهى كل شيء!

ليتحرك وسط المياه مرتجف الجسد، يصعد بهدوء على السور المقابل للنيل ويبسط ذراعيه وكأنه يحتضن العالم، فربما يحتضنه العالم بعد قليل.. أغمض عينه لتتعالى موسيقى بيتهوفن بداخل رأسه، ضحكتها الطفولية، صوت أمه، صوت ناعم يهتف باسمه، الحب وحده ليس كافيًا..

والعالم سيئ أكثر من اللازم.

يشعر بروحه أخف من أي شعور قد أصابه طيلة حياته، ربما إنه الشعور بالخلاص..

ثم.. ينتهي كل شيء.

ولكن ربما القدر يفسد حتى نهايتك،

رُبما!

***

تمت

ورُبما لا..

لا تُلقي بالرواية، هناك مشهد أخير..

إلى من تركت يدي بمنتصف الطريق، ومن خذلني حين كُنت بحاجته، إلى نفسي عندما كانت تسلب من تحت أقدامي الحياة، وإلى كُل من جعلني أظن بأني لا أستحق.

لولاكم لما نضجت، حتى وإن كان نضجًا قاسيًا.

وقع خبر موت فريد على قلبي كالصاعقة، لتتركني عائلته بعد أن وصلهم الخبر لأركض كالمجنونة نحو منزله، فقد انتشلوني من السيارة ليلة الحادثة واحتجزوني هنا دون سبب واضح..

على مقدمة الشارع تصلبت قدماي وعجزت عن التقدم خطوة واحدة، لا أقوى على رؤيته في هذه الحالة ولم أجد مراد أو سليم بالأرجاء بين الواقفين حول سيارة الإسعاف، فاتجهت نحو النيل لتأكدي من إيجادي لسليم هناك فهو لا يترك المنزل إلا للذهاب إلى مكانه البائس.. أرتجف من الحزن والبرد تحت هذه الأمطار القاسية التي انهالت على جسدي الضئيل.

وصلت أخيرًا لأجد أحدهم بالجهة الأخرى واقفًا على حافة سور الكورنيش باسطًا ذراعيهِ يمينًا ويسارًا.. ومع تفاوت وجود الضوء وشدة الأمطار لم أستطع تحديد من هو إلا بعد أن اقتربت أكثر بخطوات متسارعة، لأجده مراد.. صرخت مرددة اسمه ولكن لم يستمع أو يلتفت، فقط سقطتُ أنا على وجهي مرتطمة بالأرض وعلى يميني لم أجد إلا ضوءا قويا يضرب وجهي وصوت سارينة سيارة تقترب لتدهسني، ورأيتهُ هو يسقط ببطء للأسفل ذاهبًا إلى قبره!

لن أدعك ترحل لا، نهضتُ سريعًا زاحفة بقوة قبل أن أُدهس تحت عجلات السيارة التي أغرقتني بالمياه بعد مرورها السريع.. لأتجه خلفه مهرولة بين ساحة المياه تحت أقدامي ثم تركت الأمر للقدر، وللشيء الوحيد الذي تأملت به فلربما ينقذنا، وهو كوني أُجيد السباحة!

***